كتاب اليوم

قطاع الثقافة

ألعاب السيرك السياسى

للدكتور مصطفى محمود

■ رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

دار اخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة
القاهرة

تليفون/ فاكس
٥٧٩٠٩٣٠

التصميم الداخلى والغلاف

عبد الكريم محمود

تقديم:

السيرك

****

السياسة أصبح لها الآن ظاهر وباطن . . التصريحات على اللسان أحلى من العسل ، وما تخفيه القلوب أوامر بالقتل وتعليمات بالنسف .

ولكل سياسى عدة وجوه وعدة أقنعة يقابل بها زواره وقد يبدل وجهه عدة مرات كل يوم ، وقد يتعامل مع الشخص الواحد بوجهين . . وقد يضع على المائدة أوراقا ويتعامل من تحت المائدة بأوراق أخرى .

والحكام لهم أجهزة مخابرات ، ولهم مخازن معلومات ، ولهم مخططات معلنة ، وخطط أخرى سرية ، وخطط ثالثة سرية جدا ، وخطط رابعة لا تكتب وإنما تنقل شفاها من الفم إلى الأذن بدون سميع ولا رقيب .

ومعظم مايصلنا عن طريق شبكات الأخبار أكاذيب ومعلومات معدة سلفا لتوزع على شعوب العالم الثالث المرسوم له أن يعيش فى ضباب لا يعرف رأسه من رجليه .

المانشتات الكبرى المعلنة كانت تقول : إن أمريكا جاءت على رأس ٢٨ دولة الى الخليج وانها أثارت العالم وحشدت

البوارج والطائرات والدبابات تحت لافتة انسانية براقة اسمها : تحرير الكويت من عدوان صدام حسين .

***

ولكن الحقيقة التى ظهرت بعد أن انقشع الضباب وخبت نيران المعارك وسقط مائة ألف قتيل . . ان العدوان على الكويت تم باستدراج أمريكى . . وأن السفيرة أبريل جلاسبى أعطت لصدام الضوء الأخضر ليخترق الحدود قائلة له : إن أمريكا لن تتدخل لأنه لا توجد بين أمريكا وبين الكويت معاهدة دفاع مشترك .

ومن قبل ذلك بسنوات كانت ترسانة صدام حسين العسكرية تنمو وتكبر تحت عين أمريكا والحلفاء الأوروبيين وبمساعدتهم .

هم الذين أمدوه بالطائرات والصواريخ والدبابات والمدافع . وهم الذين بنوا له ترسانته الكيميائية ومفاعلاته الذرية . . وهم الذين دفعوا به الى الدخول فى حرب مع إيران الإسلامية .

***

وكان ما تبقى من الخطة الأمريكية هو القضاء على هذه الترسانة وتحطيمها تماما ، واستنزاف الفوائض المالية العربية

التى تكدست فى البنوك الأمريكية. وافقار المنطقة العربية وزرع الكراهية والفرقة والعداوة بين دولها بإثارة هذه الحرب التى سوف تقسم المعسكر العربى الى جانب متعاطف مع العراق وجانب ضده. . وإفشال الانتفاضة الفلسطينية بإغراقها فى مستنقع صدام والتمهيد لاسرائيل كقوة وحيدة منفردة فى المنطقة. . ثم كحصاد جانبى لا بأس به. . خفض سعر النفط. . وتشغيل مصانع السلاح الغربية وحل مشكلة البطالة وعلاج التضخم ورفع سعر الدولار. . ورفع رأس أمريكا كزعيمة وحيدة للعالم. . تأمر فتطاع ولا يرد لها كلام.

كل هذا كان وراء الكواليس.

أما على المسرح فلم يكن هناك إلا لافتة كبيرة مكتوب عليها: عاصفة الصحراء. . حرب تحرير الكويت. . ثم تصفيق حاد وهتاف عالمى وشحن مستمر لكل أجهزة الإعلام، وأخبار تنهمر من الأقمار الصناعية على كل أقطار المعمورة تحكى عن الحرب الانسانية. . والنجدة. . والأخوة. . والشهامة الأمريكية، والجيوش التى جاءت على جناح الريح من أقصى الأرض لتنقذ شعب الكويت البائس المظلوم المطحون.

كان الفارق كبيرا. . وكبيرا جدا. . بين ما يقال وما يفعل.

وكان ما يحدث أقرب الى ألعاب السيرك منها الى الواقع.

ولم يصدق الكثيرون هذا الكلام . .

وظلت الأغلبية على إيمان بأن أمريكا كانت الملاك المنقذ، وأن بوش كان الأب السماوى .

وألصق إخواننا الكوايتة صور بوش على زجاج عرباتهم وظلوا على إيمانهم بأنه نبى الرحمة فى هذا العصر .

ووضعت الحرب أوزارها وسكتت المدافع وأقلعت البوارج وعادت الجيوش وبدأت كاسحات الألغام تقوم بواجبها .

لم يبق من كابوس الحرب المشئومة سوى أربعمائة بئر مشتعلة تنفث الدخان فى سحابة تسقط المطر كالحا أسود .

ثم فوجئنا بعد شهور بأمريكا وفرنسا تعلنان عن خطة لضرب العراق من جديد . . لتنسف عشرين موقعا تدعى كلاهما أنها مواقع لأبحاث نووية لم يبلغ عنها وهى حرب جديدة تثير أكثر من سؤال .

انها هذه المرة حرب على بلد مهزوم مدمر محطم لا ماء فيه ولا كهرباء ولا مجارى ولا بنية أساسية . وعلى شعب يسف التراب، وعلى صدام جديد مختلف تماما عن صدام القديم . . فهو هذه المرة عبد مطيع يطأطىء رأسه لأى اشارة من أمريكا . . اخرج من زاخو . . يخرج من زاخو . . اجلس مع الأكراد . . يجلس مع الأكراد . . افتح أبواب ما تبقى من

ترسانتك للتفتيش . . يفتحها فورا ويضرب سلاما للمفتشين . . أبلغنا بمواقع ما تبقى من مواد نووية . . يبلغهم فى التو والساعة .

ولا أظن أن عدوانا جديدا سيقع على الكويت .

فلا تبقى إلا مظنة أن يكون صدام يجهز فى المستقبل لإعداد قنبلة ذرية . . ولكن هناك أيضا مظنة بل أكثر من مظنة . . هناك يقين على الجانب الآخر فى اسرائيل أن عندهم بالفعل أكثر من مائة قنبلة نووية . . وعدوان اسرائيل واقع كل يوم ، والهجرة مستمرة بالآلاف وبعد سنوات تصل الى ملايين . . ولا نية فى أن تنسحب اسرائيل ولو شبرا واحدا . . بل إن الظن هو مزيد من العدوان ومزيد من الاحتلال . . ومزيد من الظلم .

فكيف لا يحرك كل هذا انسانية أمريكا وعطفها؟ !

وكيف لا ترى من الصورة إلا أن هناك بقايا قوة نسيت أن تدكها فى هذا الخراب الذى اسمه العراق . . وبقايا رجل اسمه صدام حسين .

هل اتضحت الصورة؟ !

وهل علم من لا يعلم أن المسألة لا علاقة لها بأى انسانية ولا بأى مانشتات تقرأ . . ولا بأى أخبار تذاع . . ولا بكويت ولا بقطر ولا بشعوب دبى والشارقة وأم القوين ، وإنما كالعادة هى تحركات من وراء الكواليس .

وألعاب السيرك يغطى بها اللاعبون ألعابا أخرى. تمثيلية وراءها تمثيلية ووراء الكل مصالح لناس أقوياء.

ولأن كلمة المصالح مستفزة ودمها ثقيل.. فيلزم أن توضع فى لفافة حريرية من الإنسانيات والمبادىء. ويحتاج الأمر أحيانا إلى تأليف مسلسل تتداعى فيه الحوادث فى نعومة فيبدو كل شىء وكأنما يحدث بتلقائية ودون افتعال ودون أن تحركه يد.. ويشب الحريق كالعادة بدون فعل فاعل.. وغالبا ما يكون الفاعل الذى اشعل الحريق، هو أول من يأتى بعربات الاطفاء.. وأول من يتلقى التهانى على نجدته وانسانيته وقلبه الطيب.

ونحن كالعادة.. أول من يقرأ.. وآخر من يفهم.. لأننا لا نرى إلا المسرح.. ولا نعلم شيئا عن مطبخ التأليف وما جرى فيه قبل أن يقف الممثلون على الخشبة.

على هذا النمط كانت تجرى حوادث التاريخ دائما.

قرأنا أن الشيوعية قاتلت وقتلت وأعدمت وأحرقت من أجل الكادحين المطحونين المقهورين.. فهل أصاب هؤلاء المقهورون من خير الشيوعية شيئا.. أم أنها زادتهم قهرا على قهر، وفقرا على فقر.

والثورة الفرنسية نسمع أنها قامت من أجل الحرية والعدالة.. فهل حققت العدالة أم قطعت رأسها على الجيلوتين؟!

وحينما دخل موسوليني الى طرابلس غازيا لبس عمامة الإسلام وقال إنه جاء لينصر دين محمد! ! فهل نصر دين محمد عليه الصلاة والسلام أم نصب له المشانق؟!

وقد سمعنا قصة التاريخ من أفواه مؤرخين كانوا فى خدمة هؤلاء الأقوياء الكبار وفى خدمة مصالحهم وقد كتبوا لهؤلاء السادة ما يروق لهم.

وما وصلنا كان أوراقا مزيفة لا تحكى الحقيقة.. وإنما تحكى عن ذكاء هؤلاء الكبار وعظمتهم وطيبة قلبهم وانسانيتهم.

***

وفى هذا الكتاب محاولة مختلفة.. لجمع ما تفرق من أوراق وحقائق وأكاذيب هذا اللغز العجيب الذى اسمه حرب الخليج.. وما فى هذه الحرب من سراديب ودهاليز ومتاهات يحار فيها اللبيب.

ومازالت نتائج تلك الحرب تتداعى.

ومازال مطبخ الحوادث يكشف لنا الجديد كل يوم.

ولا يعلم أحد أين ستلقى سفن التاريخ مراسيها.

ولا على أى صورة سيرث أولادنا وأحفادنا خريطة هذه التركة التى اسمها الشرق الأوسط.

د. مصطفى محمود

***

أيام الخوف

قبل الحرب . . .

· أزمـــة الخليج وصلت إلى عنق الزجاجة . .

حاجز الخوف والتهويل والمبالغة والتحذير من حرب عالمية ثالثة تأكل الأخضر واليابس . . هذا الحاجز الوهمى ظل يرتفع ويرتفع حتى تحول إلى درع سميكة يستعملها صدام حسين لحمايته من أى عدوان .

والسؤال الآن هو : من صنع هذا الوهم؟

ومن ظل يهول ويضخم فى قوة العراق وفى كفاءة جيشها وفى عظمة تسليحها وفى الردارات الفرنسية والصواريخ الروسية والترسانة الكيميائية والمخازن الميكروبية والمفاعلات النووية . . وحرب الألف عام . . وصراع الفناء والهلاك والدمار؟ ! !

لقد بدأت الحكاية كبضاعة عراقية رخيصة روجتها الأبواق العراقية . . ثم تلقفتها الصحافة الأمريكية وأضافت إليها خيالات الرأى العام الأمريكى الرافض للحرب ، وأبلغتها إلى منابر صنع القرار . . فلم يتوان بوش عن النفخ فيها بدوره ليعطى لنفسه مبررا للتكثيف العسكرى ولتحريك العالم بطائراته وعساكره وبوارجه وغواصاته ومدرعاته ، وليثير

مجلس الأمن ليصدر القرارات، ويهيج الأمم المتحدة لتسارع بالتحذيرات . . وليقول العالم فى زهو : ان انتصارات أمريكا هذه المرة هى انتصار على هتلر آخر وقضاء على مارد آخر من مردة التاريخ .

وسارع يهود البورصة وسماسرة الكوارث الى الاستفادة من المناسبة فنفخوا فى النار أكثر لترتفع أسعار البترول إلى الذروة، وليرتفع الذهب، ولتتضاعف الأرباح وتمتلىء الجيوب .

وتلقف المعسكر العربى الضالع مع صدام الإشاعة لينفخ فيها أكثر وأكثر . . ووقف الملك حسين يهدد العالم باشتعال البترول وتصاعد سحب الدخان واحتجاب الشمس والموت بردا فى عصر جليدى قادم، أو الموت حرا بسبب اتساع ثقب الأوزون . . إلى آخر هذه السذاجات التى اختلقها خياله .

وسكت المعسكر العربى الآخر الواقف مع أمريكا عن هذا التهويل، والبعض خرج عن سكوته ليساهم فى موجة التخويف اتقاء لحرب قد تتسع لتعصف به وبسلطانه .

وهكذا كبر مارد الخوف بما يتغذى عليه من أوهام من جميع الأطراف . . ليرتد فيقيد حركة جميع الأطراف، وليصل بهم الى حالة من الشلل وانعدام القرار .

وبدأت الأزمة تدور فى حلقة مفرغة من التهديد وتكديس السلاح، ثم الخوف من استعماله، ثم تهديد آخر، وتكديس آخر لمزيد من السلاح، ثم الوقوف محلك سر. . لا حرب ولا سلام.

والذين أطلقوا الإشاعات صدقوها، ثم أصبحوا ضحاياها هم أنفسهم!

والرأى العام صدقهم وانطلق فى مظاهرات ترفض الحرب وتقيد أيدى صناع القرار أكثر فأكثر.

وبداية الحكاية كانت كذبة.

إن صدام حسين هتلر آخر. . وأن جيشه لا يقهر. . ومدده من السلاح لا ينفد. . وصواريخه سوف تصل إلى رؤساء الدول فى غرف نومهم. . وأنه سوف يحرق بترول العالم. . وأنه سوف يفنى نصفه فى حرب لا ترحم. . وأنه سوف يذيب جلود الأمريكان بالغازات ويشوى أبدانهم بالحرائق. . وكلها مزاعم ساذجة.

فلا صدام حسين. . هتلر. . ولا جيشه قوة لا تقهر. .

وقد دخل جيش صدام الحرب لثمانى سنوات مع جيش إيران المهلهل الضعيف فلم يستطع أن يحقق نصرا أو يحتل شبرا. . ولم يستطع أن يحرق بترول إيران ولا بعض آبارها. . ولم تحقق له أسلحته الكيماوية تفوقا. . ولم تحسم له معركة.

ولم يكتسح صدام حسين روسيا كما فعل هتلر، وإنما اقتحم جارة ضعيفة مسالمة بلا جيش هى الكويت يمكن اقتحامها ببضعة موتوسيكلات.

انها حكاية نمر من ورق، وأسد من قطن، وجيش ضعيف يحركه الخوف من قواده.. وقواده يحركهم الخوف من المهيب الركن.. وهرم من الشعارات والهتافات لا يصمد لضربة واحدة.

وصدام لا يستمد قوته من نفسه ولا من جيشه وإنما من خوف الآخرين.. من خوف التجمع الرابض على الطرف الآخر.. وكلهم جاءوا من بلاد بعيدة لا تربطهم لغة ولا جنس ولا عقيدة.. هم خليط من الشرق والغرب، لا مصلحة لأحدهم فى أن يبقى بعيدا عن أهله لحظة واحدة.. ومن ورائهم دول متقدمة تخاف هى الأخرى على رخائها واقتصادها ورجالها.. وزعماء يخافون على أصوات ناخبيهم ويخافون الصحافة ويخافون الرأى العام..

وبوش من هذا الخوف بين نارين.. بين فقدان مصداقيته وناخبيه وسلطانه وكرسيه إذا زج ببلاده فى حرب.. وبين فقدان الهيبة الأمريكية إذا انتهى كل هذا الضجيج إلى لاشىء وانفجر كبالونة هواء، وخرج صدام حسين منتصرا ومعه تنازلات عربية ومكاسب اقليمية بلا حرب وبلا ضرب.

وخروج صدام سليما معناه خروج العراق سليمة بترسانتها وأسلحتها وجيشها . . ومعناه بقاء التهديد وبقاء الخطر . . وربما تراكمه مع الأيام لينفجر بقوة أكبر وعلى جبهة أوسع فى مناسبة أخرى .

ولن يكون صدام أبدا قوة للعرب بل عليهم . .

وقد حارب صدام كل جيرانه العرب ، وتآمر على القريب والبعيد ، ولم يحدث أن ألقى حجرا واحدا على اسرائيل حتى بعد أن نسفت له مفاعله الذرى .

ولا أساس لأى ظن يفترض أن قوة صدام ستكون درعا للعرب ضد اسرائيل .

وتاريخ صدام هو أقرب للعمالة منه لأى شىء آخر . . فهو مرة عميل لروسيا ، ومرة عميل لأمريكا ، ومرة عميل لفرنسا ، ومرة عميل نفسه . . لنزواته ولطموحاته . . وهو مغامر يريد أن يشغل العالم بترديد اسمه مدحا أو ذما أو خوفا . . المهم أن يظل فى الصفحات الأولى من كل الجرائد ، وأن يظل الخبر الأول فى كل النشرات . . وفى سبيل ذلك لا يتورع أن يتخذ العروبة مطية ، والإسلام وسيلة ، والاغتيال مركبا ، والمال أداة .

وتلك صفات كل الطغاة والجبابرة . . فهم لا يرون طول الوقت إلا أنفسهم ، ولا يسمعون إلا صوتهم ولا يشهدون

فى الآخــرين إلا مـرايا.تـعكس سلطانهـم . . لا تردعــهـم إلا هزيمة تقصم الظهر.

يقول الله سبحانه وتعالى فى حديثه القدسى :

«الكبرياء ردائى والعظمة إزارى من نازعنى فيهما قصمته» .

ولا ندرى هل اقتربت النهاية القاصمة . . أم أن الله مازال يمد فى الحبل زيادة فى الامتحان . .

وكلنا فى امتحان . . صغارنا وكبارنا . .

وشكرا للخوف . . فإنه هو وحده الذى وضع أيدى الجميع على الفرامل . .

حتى المهيب الركن . . الحديدى الأعصاب . . كف يده عن العدوان . . خوفا . . وأحسبه أوفر الجميع نصيبا من الخوف، ورغم بروده ورغم شعارت التهديد التى يطلقها من وقت لآخر إلا أنه يرتجف فى باطنه . . وهو يرى مصير الذين سبقوه . . موسولينى المعلق من رجليه . . وشاوتشيسكو الملقى إلى جوار الحائط كخرقة مهلهلة مزقها الرصاص .

وكل الجبابرة جبناء رعاديد . . وسبب قسوتهم هو خوفهم وجبنهم .

حتى المارد الأمريكى خائف هو الآخر من مصير مثل مصير حرب فيتنام، والعالم بكافة دوله يخاف على البترول ويخشى صواريخ الأسعار وتقلبات الاقتصاد .

والأنظمة العربية الهشة تخشى من الهزيمة وتخشى من الانتصار . . وتخشى من طول الانتظار . . ومن تبدل الأقدار .

اسرائيل وحدها هى التى تخاف خوفا عكسيا . . فهى وحدها التى تخاف من الصلح وتخشى أن تفلت الفرصة الذهبية ويعبر العالم على حاجز الشوك دون حرب ودون ضرب ودون خراب .

وصدام بلا شك يستثمر هذا الخوف العام استثمارا جيدا لصالحه . . وهو يحرص على أن يغذى هذا الخوف كلما بدأ يخبو وينفخ فيه بالتهديدات والانذارات .

ولأن أمريكا ذات وجهين . . وجه إلى العرب ووجه إلى اسرائيل ، فهى ليست ملاك الانقاذ الأمثل ، بل هى ذاتها أحد مصادر الخوف . . ولهذا يتلفت العرب مرة إلى روسيا ومرة إلى الصين فى بحثهم عن مزيد من الأمن . . ولا أمن هناك . . ولا ملجأ ولا مرساة يتشبثون بها .

هل يؤدى هذا الخوف العام إلى اختيار حلول وسطى للخروج من الأزمة . . ؟

أم أنه سيؤدى إلى شلل عام؟

أم أن هناك من سيضرب البحر بعصاه لينهى هذا الخوف بضربة واحدة وليكن ما يكون؟ !

أم ستظل حالة الشلل الرعاش سائدة لعدة شهور. العلم عند الله . .

وأرجو ألا يفقد أحد الأطراف صبره فيتعجل النتيجة بحرب مفاجئة . . فالحرب سوف تقلب الموازين بدرجة يصعب معها التنبؤ بأى شىء .

ولا أرى خيرا فى مساومة أو صلح مؤسس على التنازلات . . فنحن امام مجرم له تاريخ فى المناورة، وله سجل حافل بالمظالم والشرور ولا يجوز اعفاؤه من العقاب . . وأى صفقة مع مجرم هى جريمة . .

ولا أحسب أن الله سيعفيه من العقاب حتى لو أعفيناه نحن . . وإنما مصيره عند الله مثل مصير الظالمين الذين قال الله عنهم فى قرآنه .

﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾

وإذا كان قد بدأ اللعبة بسباق فى البرود . . فلنكن أبرد . .

ولكننا نذكره بأن طول الحبل لا يطمئن . . لأنه هو نفس الحبل الذى سوف يلتف حول عنقه فى النهاية لتكون القارعة .

***

الحرب

حرب الخليج التى نشبت كانت طرازا عجيبا فى تاريخ الحروب . . على أحد الجانبين رأينا أكبر تجمع من ثمان وعشرين دولة بعتادها وعسكرها وبوارجها وحاملات طائراتها وغواصاتها ودباباتها . . وكلهم يفعلون شيئا واحدا . . يقصفون العراق من الجو والبر والبحر بأكبر سيل من القذائف والمتفجرات- ١٢٥ ألف طلعة هجومية -وجرائدهم تهتف فى كل طلعة : صدام . . صدام . . صدام . .

حفلة صيد والكل وراء صدام . .

إنهم يحرقون غابة ليصطادوا ثعلبا . . ثم يقولون فى النهاية : إنهم لا يريدون الثعلب . . بل يريدون شيئا آخر . . يريدون تحرير الكويت . . لماذا إذن كل هذه الآلاف من الأطنان من القنابل تلقى على العراق . . حتى تسلم لهم الكويت بدون مقاومة . . ويدخلوها آمنين دون أن تراق قطرة دم واحدة .

من أجل توفير الدم الأمريكى يراق الدم العراقى شعبا وجيشا بكافة أنواع الأسلحة . . أمور عادية فى منطق الحروب . . وهكذا كان منطق الحروب دائما . . لا غرابة . .

الغريب أن أمريكا تؤكد أن هجماتها انسانية . . وأنها خلال ١٢٥ ألف غارة لم تستهدف المدنيين . . ومع ذلك تقول

نشراتها العسكرية : إن الطائرات نسفت اثنين وستين كوبرى ومحطات مياه ومولدات كهرباء ومجمعات ومجارى ومراكز للتليفونات والبرق والبريد وخطوط للسكك الحديدية وطوابير عربات النقل وآلاف المخازن بمحتوياتها ! ! أى أن المواطن - إذا قدر له أن يعيش لن يجد الماء ولا الكهرباء ولا التليفون ولا أى شىء مخزون يقتات عليه . . ولا مواصلة ولا كوبرى ولا سوق يبيع فيه ويشترى . . وسوف يموت رعبا وجوعا . .

وفى آخر غارة ضربت الطائرات الأمريكية مخبأ للغارات يختبىء فيه ٢٨٠ من الأطفال والشيوخ والنساء وقتلتهم جميعا . . واعترفت أمريكا أن الأمر التبس عليها . . معلهش ! ! هذا يحدث دائما فى أكثر الحروب الانسانية . . لا غرابة . .

وللحق والإنصاف نقول : إن استهانة الجيش الأمريكى بشعب العراق لا تختلف كثيرا عن استهانة صدام بشعبه وتقديمه لقمة رخيصة لقنابل الأمريكان ليفنى عن آخره فى مقابل أن يحتفظ بماء وجهه . . هذا إذا كان فى وجهه أى بقية من ماء . . والحق أن وجهه خلا من الماء ، كما أن وجه خصومه خلا من الدم ! .

وبين وحشية الغارات الأمريكية ، ووحشية القرار الصدامى ، راح الشعب العراقى المسكين ضحية .

ذلك هو اللامعقول الأول فى هذا الجنون الذى يجرى على أرض الخليج .

أما اللامعقول الثانى . . فإنه لا يوجد كاسب واحد فى هذه الحرب . . الأطراف العربية الداخلة فيها سوف تخسر مدخراتها واستثماراتها وأموالها وثروتها البترولية ورجالها وآبارها وسلاحها ثم مستقبلها . . فهى غدا إذا انتصرت سوف تتدخل اليد الأمريكية لتعيد تخطيط المنطقة على هواها وعلى هوى حلفائها الأوروبيين . . وقد سمعنا المظاهرات فى أمريكا تهتف : اننا لا نحارب لنثبت الشيوخ على ملكهم . .

المستقبل إذن للنظم الديمقراطية الشعبية والانتخابات والاستفتاءات والحكومات المنتخبة . . ومجالس الشعب . . ومجالس الشورى . . الخ . . الخ . . الخ . .

والاقتصاد البترولى لن يعود فى يد الأوبك وإنما سيعود إلى القبضة الأمريكية لتحدد السعر الذى يناسبها ويناسب المجموعة الأوروبية . . ست عشرة دولارات للبرميل على الأكثر . .

ما المكسب إذن . . إنى لا أرى مكسبا واحدا من هذه الحرب للمجموعة العربية ، ولن يخفف من المأساة أن صدام المجرم سيكون مقبوضا عليه أو مقتولا أو معلقا من رجليه أو ملفوفا فى كفن أحمر مكتوب عليه إبليس عدو البشر . . فالحقيقة أن

الساحات امتلأت من بعده بعشرات الأبالسة والشياطين ممن يفوقون عليه فى المكر والخديعة . . فما حدث فى هذه الحرب انها قد استدعت كل المنتفعين من شياطين الأرض فجاءوا من أرجاء المعمورة كل منهم يريد أن يحصل على لقمة من الكعكة . . وأصبحت وليمة للقتل . . فتة . . تتزاحم عليها السكاكين والشوك . . والضحية شعب برىء هو نفسه رهينة وسجين فى يد صدام . .

حتى ميتران المنافق الذى نادى بانسحاب متزامن مع وعد بمؤتمر دولى . . ما لبث أن سحب اقتراحه حينما اشتعلت الحرب وأسرع بطائرات الميراج يدك العراق ليحصل على نصيبه من الفتة . .

ودوجلاس هيرد وبيكر راحا يترددان فى زيارات مكوكية على الشيخ جابر الصباح فى سويسرا ليوقع لهما على عقود لشركات أمريكية وانجليزية سوف تبنى الكويت . . وتصلح الآبار . . وترمم الديار . . وتقيم المصافى وتعيد المصانع الى حالها مقابل ستين مليار دولار .

لقد هدموا وقبضوا ثمن الهدم فواتير عاجلة ! !

وغدا يبنون ما هدموا ويقبضون مرة أخرى (ثمن البناء) بفواتير آجلة .

وإذا بلغت الكويت والعراق حدود الاستدانة ، فسوف

يفتح بيكر وهيرد خزائنهما فى كرم حاتمى ليقترض الكويت والعراق بضمان البترول ما يشاءان . . فالخطة هى إفقار الأغنياء وإضعاف الأقوياء حتى لا يعود هناك صوت قادر يخشى منه ويصبح الكل مدينا ومحتاجا .

أما اللامعقول الثالث فى هذه الحرب التعسة . . فهو أن الحروب تقوم عادة من أجل إحقاق الحق ومن أجل إشاعة السلام ومن أجل مستقبل أكثر أمنا . . ولكن هذه الحروب سوف تؤدى الى العكس . . سوف تخلف عداوات وفتنا وبغضاء وكراهية و تارات . . ولن يعود بعدها أحد صديقا لأحد . . وسيضرب العرب بعضهم رقاب بعض .

وسوف يسبح الإرهاب طليقا يطلب الانتقام وتصفية الحسابات .

واسرائيل تعلم ذلك ، وهى لهذا تشعل النار أكثر وأكثر كلما بدأت تخبو . . وتطمس على أى حل سلمى يظهر فى الأفق . . وتمارس ضبط النفس رغم الصواريخ التى تنزل عليها . . ولا تمد يدها لترد . . حتى لا يتحول التيار . . وينطفىء الضرام .

ومنطق اسرائيل ان يستمر هذا الغباء والحمق والانتحار الى نهايته . . وأن تحصد هى الثمرة فى النهاية . . فلا كاسب فى كل المجموعة سواها . .

وهى لا تخشى المؤتمر الدولى بعد الحرب ، لأنها تعلم انه لن يقدم ولن يؤخر ، وإذا أصدر قراراته لإسرائيل بالانسحاب من الأراضى المحتلة . . فإنها لن تنسحب ، وإذا أصدر قرارات بفك المصانع النووية والكيميائية والبيولوجية . . فإنها لن تفعل .

وهناك أكثر من عشرين قرارا سابقا للأمم المتحدة منذ ٢٣ سنة لم تنفذها اسرائيل .

أما اللامعقول الرابع فسيكون من نصيب العرب . . أن يعودوا مائة سنة إلى الوراء . . دولا تابعة . . تأخذ الخبرات والمعونات والقروض من الآخرين . دولا فقيرة متنافرة متباغضة ترتع فيها الفتن وصيحات الانتقام وتأكلها الأحقاد ويمرح فيها التخلف .

وبالنسبة لأمريكا سوف يعلو نجمها . . فالشرق الأوسط كله سيعود إليها بقواعده وخططه وأسلحته وأمنه وشعوبه . . عودة سعيدة من منطلق الكرم وحسن الضيافة مع دعوات بطول الإقامة .

نهاية عجيبة . . وكوميديا سوداء مما يكتبه كتاب اللامعقول أمثال صمويل بيكيت . . الصديق يقتل الصديق ويهتف للعدو . . والشهامة تنتحر . . والعقل يفلس . . والحكمة تبور !

ولا أظن أن هناك حلا أو مخرجا بعد أن تداعت الحوادث مسرعة إلى مصائرها المحتومة ، ولم يعد هناك مجال لفتوى أو نصيحة ، وإنما أقول ما أقول لكى نفهم ولكى نعرف العدو من الصديق ، ولكى لا تخدعنا الشعارات ، ولكى نرى ما نحن مقبلون عليه .

ولو أن القصة عادت من أولها . . ونادت السعودية تستنجد بمصر لاستجابت مصر ولما فعلت إلا ما فعلته . . وما كان لها أن تفعل إلا ما فعلت . . ولو أن السعودية والخليج استنجدت بأمريكا لأسرعت أمريكا إلى تلبية الطلب وجاءت مهرولة كما جاءت ، ولما كان لها أن تفعل إلا ما فعلت .

إن ما جرى يا إخوان كان فيه حبكة القدر ، وكان «البد الذى ليس منه بد» والحتم الذى ليس منه مهرب . . فهو ترتيب قدرى .

ولا شك أن الله له حكمة فى كل هذا ، لعل الله بهذه المأساة السوداء أراد أن يكشف جميع الأطراف ويفضح مخططاتهم .

لقد أوقع الجميع فى الابتلاء ليخرج المكتوم من نياتهم .

هكذا يفعل سبحانه بالناس قائلا فى قرآنه العظيم . .

﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ .

أراد أن يخرج المكتوم وراء ابتسامات النفاق وقبلات

الدبلوماسية وبروتوكولات المجاملة . . أراد أن يضع السيف على حد الرقبة ليقول كل واحد الحقيقة وينطق بالصدق .

واعتقادى أن القصة بدأت وأننا مازلنا فى البداية . . وأن هناك فصولا متعددة قادمة ، وأن الستار سيرتفع عن أشياء وأشياء . . فإنه لا شيء يجرى فى ملك الله عبثا . . وإن ظهر فى مرحلة أنه اللامعقول بعينه . . فإنما هو فصل من رواية . . وفى الفصل الثانى ترتفع الستار لنعرف أكثر ولنرى أن ما شاهدناه لا معقول . . كان هو عين المعقول .

وقريبا يستسلم صدام أو يقتل مهزوما ويسدل الستار على الفصل الأول من هذه الجريمة الكبرى التى دخلت التاريخ تحت اسم «طلب نجدة» .

فماذا تظنون على أى شئ ستفتح الستار غدا ، وعلى أى مشهد؟!

ستفتح على مشهد ذهبى لإسرائيل تعلو فيه وترتفع وتزغرد وتبنى المستوطنات وتستقبل آلاف المهاجرين وتضاعف عدد قنابلها النووية وتضاعف عدد بوارجها وغواصاتها من منحة الـ١٣ مليار دولار التى فازت بها من بوش ثمن السكوت وما خفى كان أعظم .

بينما سيتجمع العرب شراذم متنافرة متباغضة منقسمة على شبابيك تموين جمعيات الأمم المتحدة الخيرية ليقبضوا المعونات

والقروض وليتعاقدوا مع الشركات ومع البنائين المحظوظين من أمريكا وانجلترا وسويسرا وفرنسا . . من الذين كانوا يمطرونهم بالقنابل بالأمس .

وهذه هى الدنيا ! !

وما بقى من فصول المأساة لن تجدونه إلا فى الكتب الدينية القديمة .

فإن اسرائيل التى ستعلو وتعلو وتطغى وتفسد لن يستمر علوها طويلا . . هكذا تقول الكتب . . فما تلبث أن ترتكب الخطأ الذى يقضى عليها ، وحينذاك ينهدم بنيانها ويتحطم هيكلها للمرة الأخيرة وبنفس الأيدى العربية التى ظلموها وشتتوها وتآمروا عليها . . ويدخل المسلمون المسجد كما دخلوه أول مرة .

متى يحدث هذا؟

أيحدث فى حياتنا . .

ربما فى حياة أولادنا أو أحفادنا أو أحفاد أحفادنا . . فدولة الظلم لا تدوم .

وفوق مكر الماكرين . . هناك مكر الذى خلقهم . . والذى لا يفلت من يديه ظالم .

﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾

الخروج من أوحال الخليج

ماحدث فى الخليج لم يكن منفصلا عمـا حـدث على شـاطىء المتـوسط والأحمر، وعما جرى فى الدول العربية بشكل عام. . فمنذ الخمسينات هبت على المنطقـة العـربيـة عـاصـفـة من الانقلابات والديكتاتوريات والنظم القاسية والحكم الفردى، أعقـبتـهـا شبكة عنكبوتية من النظم الاشتراكية سقطت فى أوحالها شعوب ودول ونظم عربية.

وتحولت الأفكار الاشتراكية إلى أصنام مقدسة يحرق لها البخور، وتطلق من أجلها الأناشيد، وتنظم المسيرات وتحتكر الصـفـحـات الأولى فى جـمـيع الجرائد. . وبالتـالى تغسل العقول، وتخنق الحريات، وتكسر الأقلام، وتعلق المشانق، وتملأ السجون باسم العدالة والحرية وحقوق الكادحين!! وساهم المسرح والسينما والتليفزيون وكتيبة ممن سموا أنفسهم باليسار التقدمى فى عملية التعمية الشاملة وترسيخ الاستبداد وتبرير الظلم.

ولم يكن صدام حسين هو الوحيد فى هذه السلالة التى انفـردت بالناس، وإن كـان أشـدها قسـوة وأكـثرها تطرفا وجلافة.

وكانت دول الخليج والنظم الملكية من المغرب غربا إلى اليمن جنوبا إلى السعودية شرقا عدوا مستهدفا لهذه النظم.

وقد بدأ الشرخ فى الجبهة العربية منذ هذا التاريخ.. وبدأ الفكر التآمرى من ذلك اليوم البعيد..

وكان الحلم الإجرامى الذى كان يراود كل هذه الديكتاتوريات هو قلب نظم الحكم تحت لافتة انسانية جذابة هى إعادة توزيع الثروات وإنصاف الفقراء من ظلم الأغنياء، وخلق جمهوريات على نمط الجمهوريات السوفيتية تؤم فيها كل الأنشطة الاقتصادية ويتحول كل المواطنين الى موظفين داخلين فى ذمة الدولة التى تستولى على كل شىء وتنفرد بكل شىء وتتولى كل شىء فى حياة المواطن، من ميلاده إلى موته فى مقابل أن يتنازل لها عن روحه وعقله تشكلهما كما تشاء على وفاق المنهج الماركسى.. وعلى هدى نظم بوليسية لا يفتح أحد فيها فمه..

وكان بدء سقوط هذه النظم من داخلها.. بانقلابات داخلية.. وهزائم.. وانهيارات اقتصادية.. ثم بدأت تأتينا أخبار الزلزال من الخارج.

ثم جاء الطوفان.. وسقط سور برلين.

ووقف نوح القرن العشرين (جورباتشوف) ليفضح الكذبة الكبرى التى روجها السوفييت وفرضوها على أوروبا الشرقية

بالمدافع والصواريخ والبوليس والمخابرات ليعترف بالانهيار الاقتصادى والتخلف والإفلاس والمجاعة التى تهدد الاتحاد السوفيتى بسبب المنهج الاشتراكى الفاسد .

ورأينا أول مرة وبعد ستين سنة من الثورة البلشفية عمال المناجم السوفييت مهلهلين فقراء يعيشون كل ستة فى غرفة واحدة بلا ماء وبلا كهرباء ولا يجد الواحد منهم صابونة يغتسل بها .

ووجد جورباتشوف الجرأة ليقف فى وجه ستين عاما من الكذب والفساد ليقول الحقيقة وليقرر التخلى عن المنهج الاشتراكى والعودة الى اقتصاد السوق وإلى الانفتاح على الغرب وإلى التعددية الحزبية .

ورأينا روسيا تطلب الخبز والقمح من أمريكا ، ومعونات الشتاء من أوروبا ، والخبرة التكنولوجية من ألمانيا الغربية واليابان .

ووقفت الاشتراكيات التابعة فى البلاد العربية مشدوهة وقد تعرت بدورها لأول مرة بعد سقوط الكعبة الأم فى الكرملين . . ولم تجد ما تقوله .

وفقد كتّاب اليسار ذاكرتهم ، وترنحت أقلامهم على الورق تكتب أى كلام وكف أكثرهم عن الكتابة . . وغرق بعضهم فى المراجع والمتون يطلب نجدة . . والذين فقدوا حياءهم لم يجدوا

مانعا من أن يقولوا أى شىء.

ولم يجد صدام مانعا بعد سقوطه راية الاشتراكية من يده من أن يرفع راية الاسلام. . فقد كان فاقدا للمبدأ والحياء من البداية. .

ثم رأينا ما كان يضمره طول الوقت. .

لم يكن اشتراكية ولا اسلامية. . ولا وحدة عربية. . ولكن التوسع والغزو والاغتصاب والنهب. . كان كل ما يريده. .

وحدث ما حدث من الشريط المؤلم الذى رأيناه، والكابوس السياسى الذى عشناه بدءا بغزو الكويت. . والذى انقسم العرب فيه ليحاربوا بعضهم بعضا.

ولم يكن هناك مفر من إخراج صدام عنوة من الكويت بمساعدة القوات الأمريكية وضرب الصناعات العسكرية العراقية والبنية الأساسية لبغداد والبصرة من الجو لتعجيزه عن الرد.

وعلى البر الآخر أحرقت القوات العراقية المنسحبة ستمائة من آبار الكويت لإفقار الكويت لعدة سنوات.

ومازال صدام قابعا فى مخبئه فى بغداد محاصرا بثورة مضادة فى الشمال وثورة مضادة فى الجنوب ومؤيدا ببقية من حرسه الجمهورى!!

ولا يوجد أمامه إلا مشروع موت بطيء . . أو هرب . . أو انتحار . . أو قتل يختصر نهايته .

أما ما تبقى من الخريطة العربية . . فهى خريطة أشلاء تحاول ان تجتمع . . وجراح تحاول أن تلتئم . .

ولكن الخروج من أوحال الموقف يجب أن يبدأ من البداية . . من بداية الكارثة . . من نظم الحكم الفردى ومن الهياكل الاشتراكية الفاسدة . . التى كانت السبب الأول للشرخ السياسى فى المنطقة ، والتى قسمت المنطقة إلى يمين ويسار ورجعية وتقدمية إلى آخر هذا القاموس من الأكاذيب المفتعلة . .

وهذه الأكاذيب المفتعلة هى التى أنجبت بدورها الكذبة الكبرى المعسولة . . إعادة توزيع الثروة وإحياء الوحدة العربية بالغزو ، وشرعية السطو والسرقة والمصادرة لصالح المطحونين والمسحوقين والكادحين . . إلى آخر الموال القديم .

ولن يكون هناك خروج من هذا الوحل إلا بالخروج من هذا الموال المبتذل وما يتبعه من نظم حكم فردية وعصابات تحكمية وقوانين بوليسية . . وأكاذيب أيديولوجية .

وفى مصر حددنا ألف يوم للخروج من هذه الأوحال الاشتراكية .

ألف يوم لنخرج من الدعم والخمسين فى المائة عمال

وفلاحين والمجانية والعشوائية وبيروقراطية التصدير والاستيراد والقوانين التى تغلق على الاستثمار والانفتاح بالضبة والمفتاح وتعوق انطلاق الطاقات الفردية فى أن تتحرر وتبدع وتنطلق وتكسب وتشغل الأيدى العاطلة . .

فهل نسير بالسرعة المطلوبة . . وهل نتحرك . . أم أننا نتكلم ونجتمع وننفض فى لجان؟

ولماذا ننتظر ألف يوم حتى نصدر الكتاب المصرى والمنتجات المصرية الى الخارج فى حرية دون أن نقبض على المصدر لأنه لم يتلق أمواله فى موعدها بتهمة التهريب . . وكيف يكون انتشار الكتاب المصرى فى الأسواق العربية تهريبا . . وكيف يكون عبور المواهب المصرية الى الأقطار العربية على جناح الكتاب تهريبا . . لماذا لا يعدل هذا القانون فورا دون انتظار؟!

هذه أمور لا تحتاج لألف يوم . . لأنها بداهات . . وانقاذ التعليم من التكدس والزحام واللاجدوى . . بداهة أخرى عاجلة .

ان طلاب اليوم فى هذه الفصول المجانية المكدسة والتى لا تتلقى بالفعل أى تربية أو تعليم هم وزراء الغد . . فأى وزراء سيكونون وهم بهذه الصفة من الجهل والبطالة والضحالة العلمية .

وبماذا يفتى خمسون فى المائة من الفلاحين والعمال فى

مشاكل الكمبيوتر والهندسة الوراثية ومشاكل الأوزون والبيئة وبدائل الطاقة. وماهو محصولهم العلمي ليشاركوا فى هذه القضايا التى هى قضايا العصر والساعة . .

هل هم مجرد متفرجين . . أم مجرد مصفقين؟!

وماهى إضافتهم الحقيقية . . فى وقت مطلوب من كل فرد فيه أن يكون إضافة حقيقية لا مجرد صورة وبطاقة عضوية؟!

***

وما يقال فى مصر لابد أن يقال مثله فى ليبيا وسوريا واليمن والسودان إذا أريد بالفعل الخروج من أوحال الموقف الحالى . . وإذا أريد الحصول على صحبة فعالة وأيد حرة تشارك فى تغيير وتحديد المسير والمصير . .

إن التحدى اليوم هو اسرائيل .

وهو تحد لا يواجه بالهتافات والشعارات والمزايدات . .

وإنما بالعلم والاقتصاد والصناعة المتطورة والسلاح المكافىء واتحاد الكلمة ووضوح الموقف .

وعلى مصر أن تأخذ حجمها فى هذه الجبهة المتحدة ، وأن يسمع صوتها ويعرف ثقلها . . ولابد أن تنتهى الحساسيات والتحيزات والتحفظات إذا أريد لهذا الجمع الفعال أن ينشأ .

وهناك وقت مطلوب لإصلاح البيت من الداخل فى كل دولة، ولإصلاح مداخلنا الى البيوت الأخرى، وإلى إصلاح حوارنا ولغاتنا وتغيير مواقفنا التقليدية ومخاوفنا العائلية.

وإذا كان إصلاح البيت الداخلى سيحتاج إلى ألف يوم..

فكم ألف شهر آخر سيحتاج بناء الهيكل العربى الكبير وإصلاحه وترميمه؟!

إن إيقاع التاريخ فى زماننا أسرع من أن ينتظر آلاف الشهور وآلاف الأيام.

إن الدنيا تجرى.. تهرول.. تلهث.

والعلم يتطور وذاكرات الكمبيوتر يخزن فيها كل يوم من المعلومات والإحصاءات أضعاف ما عرف التاريخ فى ألف سنة مضت..

وفى كل يوم تخرج نظرية ويولد اختراع.. فمتى نتابع ونتعلم ونهضم ونجد الفرصة لنخترع بدورنا وندخل فى مجال المنافسة؟!.. ونحن إلى الآن مكبلون باللجان التى تجتمع وتنفض، وبالقوانين العتيقة التى انتهى عمرها الافتراضى.. والتى مازالت تحكمنا من مقابر الغفير.

مطلوب شجاعة تواجه هذا كله.

ومطلوب حزم وبتر.

وجامعتنا التى تحولت إلى مدارس ثانوية من الدرجة الثانية تعج بالضجيج والزحام وتمضغ محاضرات وملخصات انتهت موضاتها . . والمعامل خلت من الأجهزة . . وطالب الطب لا يجد فرصة ليفحص مريضا أو يمارس التشريح بيده أو يجد موطىء قدم ليشاهد جراحة . . وطالب العلوم لا يجد مختبرات على مستوى العصر . . وطالب الفلك الذى يذهب إلى مرصد القطامية يفاجأ بالمرصد متوقفا منذ شهور بسبب المرآة التى فى حاجة إلى طلاء أو إصلاح أو استبدال . . لا أحد يدرى . .

وهو يعرف من كتبه ومقرراته أن علوم الرصد الفلكى سبقت الآن مرصد القطامية بكثير . .

مطلوب شجاعة تواجه هذا كله، ومطلوب أموال توضع فورا فى مكانها لإصلاح هذا كله .

ليس عيبا أن نكون فقراء . . ولكنها جريمة أن نكون متخلفين .

والعقل لا يعرف مستحيلا . . وهو يستطيع أن يبدأ من الصفر . .

واليابان بدأت من الصفر .

وألمانيا الغربية بدأت من تحت الصفر .

وكوريا الجنوبية بدأت من تحت الصفر .

ولكن المناخ الحر والديمقراطية ، والفرص المتاحة والهيكل السياسى المرن . . فتح الباب على مصراعيه للعمل والتنافس والخلق والإبداع ، فـارتفع البناء فى سنوات قليلة وحـدثت المعجزة . .

واليوم . . نسمع عن المارك الألمانى والين اليابانى . .

والصناعـات الألمانيـة واليـابانيـة تقـتـحم على أمـريكا أسواقها . .

لسنا فى حاجة لألف يوم لكسر قيودنا .

ونقـول للخـائفـين من ردود الفـعل : ان الماضى المتـراكم بأخطائه سيفجر الموقف بما يشتمل عليه من بؤس وبطالة وعجز بأخطر مما يفعل أى تغيير . . لأن التغيير سوف يعد بالأحسن . . أما البقاء على ما نحن فيه فإنه لا يعد بشىء وأعود فأكرر :

إن الخروج من أوحال الخليج يبدأ من هنا . . ونفس الكلام ينطبق على كل بلد عربى . . على سوريا وليبيا والسودان واليمن والعراق والجزائر والمغرب وباقى الأخوة . . فلغة التقدم أصبحت كلها لغة واحدة . . ومفرداتها هى هى فى كل مكان . .

والرد على التحدى الاسرائيلى . . يبدأ من نفس المنطلق .

وعلى الإسلاميين أن يتحاوروا بنفس اللغة . . وأن يتقنوا نفس المفردات . . فالإسلام يضع العلم على رأس أولوياته ، والشورى على رأس سياساته، وهو ليس غريبا عن هذا القاموس الجديد من الديمقراطية والحوار .

أما أعداء الإسلام الذين لا يرون من الإسلام إلا اللحية والجلباب والقبقاب والتعصب والجمود على السلف فهم خارج الموضوع . . وهم أيضا خارج التاريخ . .

وقد جاء الوقت ليتحرك الأزهر من موقف المحافظة والتقليد الى ساحة الاجتهاد والإبداع . . فالإسلام نفسه دين متفجر لا يتوقف عطاؤه، وآيات القرآن تسبق العصر دائما بما تحوى من معان متجددة . . والتفسير القرآنى لايتوقف عند ابن عباس وابن كثير والطبرى والزمخشرى . . بل هو مستمر فى العطاء إلى أن تقوم الساعة . .

الحركة . . الحركة يا أخوة . . فقد طال الركود والجمود والسكون حتى كاد يسلمنا إلى الشلل .

الحركة فى كل شىء وفى كل ميدان . . وفى كل مجال . . فالحياة ذاتها حركة والفكر حركة .

ولا سكون إلا للموتى .

المستقبل الملبد بالغيوم

أخيرا سقط صدام حسين ونظامه الفاجر . .

وعدد القتلى من جنود صدام في التقديرات الأولية مائة وخمسون ألفا . . ومثلهم من الأسرى، ومن المدنيين أضعاف ذلك، ومن الدبابات أكثر من أربعة آلاف دبابة معطوبة ومن الطائرات المئات . . والبنية الأساسية في العراق على الأرض . . لا ماء ولا كهرباء لا اتصالات ولا سكك حديدية ولا صرف صحى .

ولا شك أن أمريكا وانجلترا وفرنسا سعداء بهذه الفرصة النادرة التي منحتها لهم حرب الخليج . . فقد جربوا أسلحتهم الجديدة ، وكان الألوف من القتلى والدمار الفورى الذى ظهر على شاشات التليفزيون إعلانا مجانيا طيبا لشركات السلاح الأمريكية . . فارتفعت أسهم الباتريوت ونزلت أسعار الذهب وارتفع الدولار . . وتواضع سعر برميل النفط من ثلاثين دولارا إلى سبعة عشر دولارا رغم إحراق الآبار الكويتية وتوقف العراق عن بيع مخزونها النفطى .

ومعنى ذلك أن النفط فى طريقه إلى النزول أكثر فأكثر . . وأفواج العمال والمهندسين والخبراء فى طريقهم من أمريكا

وانجلترا إلى السعودية والكويت لإعادة تشييد ماتم تدميره . . ومصانع السلاح تعمل بكل طاقاتها لاستعواض السلاح الذى تم تحطيمه . . كله مكسب . .

لقد كانت حرب الخليج جرعة منشطة للاقتصاد الأوروبى والأمريكى ، وعلاجا فوريا للبطالة ومصدرا جديدا للدخل .

ولم يكن رضا أمريكا ولا غضبها فى أى يوم من الأيام علامة على عدالة حاكم أو فساده .

وتتوارد على خاطرى أسماء طغاة سفاحين سقطوا : شاه إيران . . ماركوس . . نورييجا . دوفاليه . . اورتيجا . . وأخيرا صدام . .

ولم يكن السبب المشترك لسقوطهم هو طغيانهم . . ولكن خبر آخر ننساه دائما هوموقف أمريكا من هذا الطغيان . . فبعض هؤلاء صنعته أمريكا وساندته ودفعت به إلى مقعد الرياسة وأيدته وسلحته مادام يوظف طغيانه لحسابها ، فإذا بدأ يخرج عن الدور المرسوم ويعمل لحسابه تغيرت المانشتات وتغيرت الصفحات الأولى فى الجرائد وظهرت لغة أخرى فى الإعلام الأمريكى وفى السياسة الخارجية الأمريكية تقول : إنه مجرم وأفاق وطاغية يجب بتره واستئصاله .

ولم تكن أمريكا القاضى العادل النزيه كل مرة . . فقد وضعت أمريكا يدها فى يد السفاح ستالين ، ووضعت يدها فى

يد الطاغيـة الدمـوى تشـاوتشـسكو وكـانت تعطيـه مـلايين الدولارات مرتبا شهريا كعميل مخلص . . كما تعاملت مع فـرانكو وسالازار وسوموزا وموبجستو هايلاماريام ديكتاتور أثيوبيا .

وحـتى هذه اللحظة هناك أكـثـر من طاغـيـة يتلقى الدعم والتأييد والسلاح من أمريكا وهو فى أمان مادام هو رجلها . . ومـازالت اسـرائيل إلى هذه اللحظة تدك بيـوت الفلسطينيين بالطائرات وتتلقى مليارات الدولارات والتأييد والفيتو من أمريكا . . ومـا كـانت حرب الخليج بحرب مبادىءبل حرب مصالح .

إن أمـريكا - التى انفـردت الآن بالكون - ليـست الإمـام العادل عمر بن الخطاب ، ولا يصح أن نتعامل معها من منطق التسليم وتقديم فروض الولاء والطاعة والعبادة . . وإنما من منطق المساءلة والمحاسبة .

***

لقد انتهت حرب الخليج . . ولكل حرب غنائم . . إلا هذه الحرب فكلها خسائر على جميع الأطراف العربية . . خسائر فى المال وفى الرجال وفى الثروة البترولية ، وفى العمار الذى تحول إلى دمار ، وفى الشمل الذى تفرق ، وفى الوحدة التى

تبعثرت، وفى المستقبل الذى تحول إلى تربص وتارات وعداوات . . وفى المصير وفى السمعة .

لا مكسب واحد . .

الذين لعبوا اللعبة بذكاء و«حرفنة» هم الانجليز والأمريكان . . أخذوا أموال العرب وأفقروا أغنياءهم وأضعفوا أقوياءهم ودخلوا أوصياء فى الخلاف الذى صنعوه . . وفى النهاية صدام مازال موجودا . . والخريطة «العربية باقية» على ماهى عليه . . مع فارق واحد بسيط . . أنه أصبح فى كل دولة خازوق اسمه الخوف من الجار المتربص .

وفى غمرة الخوف العربى- العربى سوف يتوارى الخوف العربى الاسرائيلى .

والعرب الأيتام فى مأدبة اللئام . . أصبحوا جميعا ضعفاء وفى حاجة إلى أب روحى يحميهم من بعضهم البعض . . والأب الروحى جاهز وممدود اليدين . . وهو العم سام الطيب الودود الذى يوزع القمح على الجميع بالقروض والمعونات، ويوزع الأسلحة التقليدية التى لا يصل مرماها إلا إلى الجار العربى (ولا تطول اسرائيل أبدا) . . ويفتح لهم حضنه الحنون ويضمهم كالأفراخ الضالة فى حظيرة ربيبه الصهيونى حتى تتربى الأفراخ على كراهية كل ماهو عربى، وعلى معايشة

اسرائيل الكبرى والحب والولاء لأمريكا القائمة على العدالة فى الأرض ورمز الديمقرطية والحرية، وحارس الأمن على اتساع الكرة الأرضية كلها.

***

وغدا تكون الصراعات القادمة هى صراع حضارات فى مواجهة حضارات.. واقتصاد فى مواجهة اقتصاد.. وعلم فى مواجهة علم.. وتكنولوجيا فى مواجهة تكنولوجيا.. ومخابرات فى مواجهة مخابرات.. وإعلام فى مواجهة إعلام.. وفن دعائى فى مواجهة فن دعائى.

وسوف تتوارى الأخلاق كعنصر له وزن، وسوف تتوارى القيم.. ولن يبقى منها إلا اسمها كماركة للدعاية والترويج للأفكار الزائفة.. ولن تبقى.. إلا غابة من المصالح المفترسة..

وسوف يختفى الدين في ظاهر اللعبة ويتوارى فى المساجد رغم أنه سيظل القنبلة الزمنية الموقوتة الكامنة فى باطن الصراع كله.. فكل الحملات محشودة ضده، وكل القوى الإعلامية موجهة إلى رموزه..

ان الصهيونية (وهى المدفعية الضاربة) منتشرة كالأخطبوط فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن والكونجرس ومجلس العموم

ومجلس اللوردات وادارات المخابرات وشركات صناعة الأسلحة والطائرة والصواريخ والمفاعلات النووية . . وهى فى مؤسسات النشر الصحافة والكتاب والتليفزيون والسينما والمسرح . .

وهى القابضة على أعصاب البورصات والبنوك والأسهم والسندات وأسواق البترول والذهب والماس والبرونز والنيكل والحديد والألومنيوم وكل ما يباع ويشترى ويصنع منه شىء .

والصهيونية ممتدة بأذرعها الأخطبوطية حتى فى الفاتيكان وفى الهيئة البابوية . .

ألم تستطع أن تمحو عبارات اتهام اليهود بصلب المسيح من الانجيل المتداول بموافقة البابا وبركته . . ووضعت التهمة على رأس الرومان والغوغاء . . وطبع الانجيل الجديد فى تل أبيب معدلا .

الصهيونية إذن هى التى ستكون القوة الفاعلة الوحيدة فى العصر القادم من وراء العباءة الأمريكية ومن وراء تمثال الحرية العتيد .

وسيكون هدفها تعقب الإسلام ورموزه ، وضرب معاقله وتشويه اسمه والقضاء على ما تبقى من منابر العروبة المنهارة ، والدفع بالحملة الصهيونية تحت شعارات بريئة . . مثل ضرب

الرجعية ومحاربة التخلف وتحرير المرأة والقضاء على التطرف، وحرية الفن، وحرية الجنس ومحاربة الكبت والتسامح الدينى، وإقامة المعسكرات الشبابية لتكون مرتعا للانحلال المشروع تحت حراسة مؤسسات الدولة.. وترويج أفلام الجنس والعرى والعنف ونشر المخدرات.

والقضاء على الشباب هو وسيلتهم للقضاء على المثالية والقضاء على الروح.. والقضاء على الأمل فى التغيير.. والقضاء على المستقبل..

وتلك كلها جبهة واحدة من جبهات الحملة الصهيونية.

وهناك جبهات أخرى تجرى فى خفاء أكثر.. لتدمير الاقتصاد ولخلق الأزمات والإثراء من انهيارات البورصة.

وجبهة ثالثة أكثر خفاء هى سرقة الأسرار العسكرية لصناعة السلاح المتقدم وتكديسه وانشاء مدن تحت الأرض، وطرق ومخازن ومطارات تأهبا لليوم الموعود والأمل المنشود.. يوم يغنى آل صهيون.. من النيل إلى الفرات يا اسرائيل.. ويوم ينتقمون لهزيمة خيبر.

هكذا يخططون.. وهكذا يحلمون.. كما يقول تلمودهم وكما يقول كتابهم بروتوكولات آل صهيون وكما تقول توراتهم.. وكما تقول أفعالهم ومؤامراتهم.

وهم يرون الآن أنهم قطعوا نصف الطريق إلى الكعبة . . فقد قضوا على العروبة بأيدى العرب . . وأصبحت الساحة بطول وعرض الشرق الأوسط خالية لفرسانهم . . فالأرض مليئة بالجرحى والضحايا . . وجميع الأطراف يلعن بعضها بعضا . . والفقر والخراب والأنقاض والدبابات المحترقة تسد الطريق أمام خمسين عاما آتية من التخلف .

ولن يتركوا جراحنا تلتئم بل سيلغوا فيها وينفثوا فيها بسمومهم فيجعلوا الأخ يتوجس من أخيه ، والابن يشك فى أبيه ، حتى يصبح الكل فى عين الكل متهما .

سيكون همهم توسيع الجرح وتكريس الذل .

وسوف يحسبون حسابا لكل شىء إلا رحمة الله . . فهى شىء لا وجود لها عندهم . . وإذا وجدت فهى لهم وحدهم . . فالرب هو ربهم وحدهم . . رب اسرائيل وداود ، وبقية البشر أميون مسخرون لا يعبأ الرب بهم ولا يهتم فى أى واد هلكوا .

***

ولكن رحمة الله قادمة . . ونحن أهلها . . فما أرسل الله نبينا إلا رحمة للعالمين ... وذلك وعد غير مكذوب .

وما هذا البلاء إلا مقدمة لتلك الرحمة . . فهو نار المطهر التى قضى الله أن ندخلها جميعا . . فقرآننا يقول :

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) ﴾
[الإسراء]

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) ﴾ [الشرح]

أى لا يأتى عسر إلا ويحف به يسران ورحمتان.. فابشروا واعملوا.. فلا ييأس من رحمة الله إلا القوم الضالون.

اعملوا واكدحوا الى الله بطلب العلم وليس بتربية اللحى وتقصير الجلاليب ولبس القباقيب والتمسك بالمظهريات والثانويات.. فإن أول آية نزلت فى كتابكم.. هى:

اقرأ...

أمر مباشر من الله بالقراءة وطلب العلم والبحث والتفكر والتأمل.

وقد أمر الله بالعلم والعمل فى أكثر من ألف وخمسمائة موضع فى القرآن الكريم.. فكيف نكون أمة الجهل والكسل وهذا كتابنا؟!

وكيف نرجو رحمة الله ولا نطيعه؟!

وكيف نعلق المصاحف فى رقابنا ولا نعمل بها؟!

وكيف نتمتم ونحوقل على المسابح بما لانفهم وبما لا نعقل وبما لا نعمل . . وكيف نجعل من شهر صيامنا شهر أكل وسهر وسمر ولهو . .

العلم أولا والعلم ثانيا والعلم ثالثا . . والعمل بما تعلمناه رابعا . . والهمة دائما . . ومكارم الأخلاق والصدق مع النفس والصدق مع الله أخيرا . . هذا ديننا .

لنبدأ عهدا جديدا إذا أردنا أن يكون لله معنا عهد جديد .

ولنغير من نفوسنا حتى يغير الله من أحوالنا . . فقد غربت الشمس واشتمل علينا ليل حالك مدلهم لا يلمع فيه نجم .

فلنعمل ولا نألوا جهدا حتى لا يطول علينا انتظار الفجر .

***

والحزانى منا على اندحار صدام ظنا منهم أن صدام كان مسلما مثلنا . . أقول لهم فى يقين : بل كان عدوا فاجرا لا ذمة له ولا عهد ولا كلمة ولا إسلام . . وكان عميلا للفئة الباغية . . ولم يكن يعبد سوى نفسه . . ولقد ذهب إلى حيث يذهب أمثاله . .

والذين صدقوه خدعتهم نفوسهم الطيبة وسذاجتهم .

وهكذا نحن فى مصر عيبنا الطيبة والسذاجة . . وأننا نصدق على التو . . كل من يقول يا رب . .

ونظن أنه مثلنا مؤمن سليم القلب لأننا ننظر إليه بمرآة قلوبنا . . وليس بعقولنا الناقدة الفاحصة . .

ولعلنا نتعلم من الدرس ونكف عن هذه البلاهة . . ونستعمل ذكاءنا . . ولو قليلا .

***

روسيا.. تتبرأ من اسم لينين

في الخمسينات من هذا القرن هبت رياح الاشتراكية على معظم دول العالم الثالث لتحمل إليها الخراب والدمار والفساد السياسي ولتتركها بعد ذلك أنقاضا . . وحمل لواء تلك التحولات التي كانت أشبه بمرض انهيار المناعة أو الإيدز السياسي أسماء نذكرها جيدا أمثال : عبدالناصر والأسد وصدام ونميرى وحسين إرشاد وسياد برى ومانجستو وأنور خوجة وتيتو وأورتيجا وكاسترو . .

وكلهم نقلوا هذه العدوى إلى بلادهم على طريقة زرع الأعضاء . .

وكالعادة انتهت عملية الزرع الخطأ إلى رفض الفكر المزروع ، وإلى انهيار البنية الاجتماعية والسياسية لتلك البلدان ، وحدث نفس الشيء فى كل بلد دخلته الاشتراكية .

وزحف الموت حتى وصل إلى روسيا الأم التى ظلت تتآكل من الداخل حتى أشرفت على الهلاك ، وأدركت حكامها صحوة ضمير ، فوقف جورباتشوف ليقول : إن روسيا اختارت الطريق الخطأ وان الاقتصاد الاشتراكى أصاب بلاده بالدمار . . عند ذلك فقط فتحنا عيوننا على الحقيقة .

وكانت صدمة اهتز لها العالم وسقط من بعدها الأتباع وانفرطوا كحبات المسبحة!!

كان آخرهم مانجستو المطرود فى زيمبابوى.. وموبوتو المطرود من زائير إلى المنفى فى جنوب فرنسا، فى إحدى ضياعه هناك بعد أن ضيع وسلب ونهب شعبه الجائع الفقير ومازال الانفجار المتسلسل مستمرا، ومازالت بقايا السلالة الاشتراكية تتساقط واحدة بعد أخرى.

وآخر خبر سمعناه كان من أهالى مدينة ليننجراد الذين طالبت أغلبيتهم بتبرئة مدينتهم من اسم لينين والعودة إلى اسمها القديم.. سان بطرسبورج.

وآخر مشهد رأيناه على التليفزيون كان لفلاح أثيوبى ينهال على تمثال لينين ضربا بالحذاء!

ولكن الشيوعية التى دخلت روسيا بالسلاح وسفك الدماء، والتى قامت على الإرهاب والسجون والمعتقلات، والتى ضربت بجذورها فى البنية الاجتماعية لا يمكن إقتلاعها إلا بالدم والكفاح والعذاب مرة أخرى.

والخمس عشرة جمهورية سوفيتية والتى تؤلف الاتحاد السوفيتى والتى تتفكك الآن بعد أن ذابت المادة اللاصقة التى

تربطها . . (ولم تكن تلك المادة اللاصقة إلا قبضة الديكتاتورية الحديدية) . . الآن وقد خفت تلك القبضة الحديدية . . وضعف النظام العسكرى فى موسكو . . بدأت تظهر قيادات فى كل جمهورية تطلب الاستقلال والانفصال . . ومع ارتفاع الأسعار والبطالة واختفاء السلع . . بدأت كل جمهورية تحاول أن تستقل بخيراتها وتنفصل باقتصادها وتقطع التزاماتها نحو الحكومة المركزية . .

جمهوريات البلطيق الثلاثة : لاتفيا ولتوانيا واستونيا . . وجمهوريات جورجيا وأوكرانيا وأرمينيا وأذربيجان وكازاخستان حتى بيلوروسيا التى اشتهرت بهدوئها اكتسحتها الإضرابات .

أكثر من ثلاثمائة ألف من عمال المناجم فى أوكرانيا أضربوا . . وكذلك عمال السكك الحديدية فى جورجيا . . وعمال المصانع فى جبال الأورال . . وأغلب وسائل النقل البرى توقفت . . ومؤسسات الدولة مشلولة . . ودعائم النظام تتهاوى بينما كان جورباتشوف يطالب بمزيد من السلطات ليواجه الموقف . .

وخرجت المظاهرات تطالب بذهاب جورباتشوف . . فقد وعد بالخبز والحرية ، فلم يأت إلا بالجوع والبطالة والغلاء والفوضى . . وما لبث أن لوح لها بالعصا الغليظة . .

ويلتسين ـ عدو الشيوعية اللدود- تحمله أصوات الناخبين إلى الرياسة . . وبين قوى الحرس القديم من ناحية أخرى يتمزق النسيج الواهى للاتحاد السوفيتى وينذر بكارثة .

قد يسأل سائل : ولماذا لم يترك جورباتشوف الشيوعية على حالها . . مستورة بعيوبها تحت حماية الدبابات وحراسة الـK.G.B . .

ولماذا لم يدع الشعب مقيدا فى سلاسله كما فعل لى بنج فى الصين؟!

والجواب : إنه لم يفعل ما فعل غراما بالديمقراطية . . وإنما فعله كحل وحيد امام انهيار إقتصادى كامل . . كان النظام سيتعرى به والشيوعية ستفتضح ، والعامل لن يجد ما يأكله بسبب عدم كفاية الانتاج وانهيار الصناعة والزراعة وتخلف النظام أمام تنافس رأسمالى سيقضى عليه ، فلم يكن من الممكن الاستمرار فى الكذب . .

بعد سبعين سنة من الشعارات اختفى المخزون السلعى وهبط الروبل الى الصفر ، ولم تعد أجهزة الإعلام أو جبروت الـK.G.B يستطيع أن يصنع شيئا امام حقيقة سوف تفتضح ، ومجاعة سوف تعلن عن نفسها . . فلم يجد الرجل بدا من المصارحة بالكارثة . .

وبفضل تلك المصارحة ، وبفضل أوروبا الشرقية التى قدمها رشوة للرأسمالية الأمريكية ، استطاع أن يتلقى المعونات والمساعدات والكساء والغذاء الذى عبر به شهور الشتاء القاسية . . وبفضل تلك المصارحة استطاع أن يعفى نفسه من نفقات حرب عقيم فى أفغانستان ومعونات لاشتراكيات فاشلة مثل اشتراكية كوبا وأنجولا ونيكاراجوا وموزمبيق ، واستطاع أن يتخفف من التزاماته نحو شيوعيات طفيلية مثل شيوعيات ألمانيا الشرقية والمجر وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا ، واستطاع أن يوقف النزيف العسكرى الذى كان يجرى تحت عنوان :

ثورات العالم الثالث .

وأعانته تلك المصارحة على عبور شهور عجاف .

ولكن المصارحة كانت طوال الوقت تعمل عملها فى داخل المجتمع الروسى . . كانت تعمل على تآكل أعمدة البناء الكاذب الذى أقامته سبعين سنة من الدجل الماركسى . . وكانت الأرض تحت قدميه تتآكل هى الأخرى . . والمؤسسات تتكشف . . والنظام ينحل . . والجمهوريات تتفسخ .

وأوشكت الأرض أن تخسف به وهو واقف .

وجاءت اللحظة الحرجة . . اللحظة التى سوف تدفع روسيا فيها ثمن أكاذيب سبعين سنة نشرتها وروجتها فى العالم . . شرقه وغربه وأعانت عليه بالسلاح والنار والدم .

وحل موعد دفع الثمن المؤجل لظلم وجبروت لينين وستالين . . كما يدفع العراق الآن ثمن استسلامه لجبروت صدام .

والتاريخ لا يعفى حاكما ولا محكوما . . وهو قد يؤجل الدفع ولكن إلى حين . . ولهذا سقطت امبراطوريات مثل الامبراطورية الرومانية . . والامبراطورية الفارسية . . والامبراطورية الأسبانية . . والامبراطورية البريطانية ، ودالت دولة النمسا ، ودولة قرطاجنة ، ودولة العرب حينما دب فيها الفساد .

[يقول ربنا تبارك وتعالى :

﴿ لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (يونس ٤٩)

لا بقاء لفساد ولا بقاء لباطل مهما اجتمعت لنصرته الجيوش واحتشد له العسكر وساندته الكتب و النشرات .

ولا أكثر من الكتب التى كتبت فى تمجيد ماركس والماركسية والشروح التى دبجتها اقلام (بعضها لأساتذ ة فى جامعاتنا) . . وأخرى لأساتذة فى جامعات الغرب رفعت هذه النظرية الى مرتبة النواميس التى لا تخطىء .

وقد جاء وقت فى بلادنا كان من يتعرض لماركس بنقد يزج فى السجون ويلقى به وراء الشمس . . وكانت كلمة «فلسفة

مادية» يشطبها الرقيب ويشطب صاحبها اذا كان يتعرض لها بنقد.

وفرضت الحماية على الباطل عشرين سنة لأن الحكام كان لهم مصلحة فى مناصرته.. ثم دالت دولتهم وانهزمت عصبتهم وتغيرت الدنيا.. وتغير الفكر من النقيض الى النقيض.. وسكنت اقلام.. وظهرت اقلام.. واختفت وجوه.. وظهرت وجوه..

وأصبحنا نحن أيضا نعيش تلك اللحظة الحرجة التى تمر بها روسيا ومر بها جورباتشوف، نعانى من نفس الظروف التى تتطلب الانتقال من الاقتصاد الشمولى الى الاقتصاد الحر، ومن قوانين المادية الجدلية الى قوانين السوق، ومن حكم الفرد الى حكم الديمقراطية.

وما قال جورباتشوف انه سوف يفعله فى خمسمائة يوم.. قلنا نفعله فى ألف يوم.. ولا مفر ولا مهرب.

ولأن روسيا كانت رأس البلاء، ولأنها هى التى دفعت بالعالم الى هذا المنحدر، فإنها تدفع الثمن الأكبر.

أما نحن وصغار الاشتراكيات.. فظروفنا أحسن، وإمكانات الإصلاح عندنا أفضل إذا توافرت لنا العقليات القيادية الخلاقة والسياسات المبدعة.

وفى مثل تلك التحولات الكبرى يفشل دكاترة الاقتصاد بحلولهم التقليدية، وكتبهم العتيقة ، وتفشل مشوراتهم المحافظة ونصائحهم الخائفة المترددة .

وفى مثل تلك اللحظات الحرجة يتطلب الموقف عقولا مبدعة، وسياسات غير تقليدية ومجازفات محسوبة .

أما الخوف فهو لا يجدى ، والحلول الوسطى تعطل ولا تنجز شيئا .

***

ولسنا مثل الاتحاد السوفيتي الذى كان يتألف من خمس عشرة جمهورية تفككت الآن وانهارت على رأس الجالس فى الكرملين . . ولسنا مثل روسيا التى يختنق اقتصادها فى قبضة الشمولية الحديدية سبعين عاما . . فقد أعفانا أنور السادات بذكائه اللماح ووفر علينا نصف الطريق فكسر هذا النطاق الشمولى وحرر القطاع الخاص، وسبق جورباتشوف بالانفتاح منذ السبعينات . .

وليس على النظام الموجود إلا أن يمضى قدما فى هذه السياسة الجريئة - بلا خوف وبلا تردد - نصف الطريق الباقى .

إن بلادنا غنية بالموارد .

فى شبه جزيرة سيناء يوجد النحاس والمنجنيز والكوبالت والسليكون والزمرد والعقيق والكوارتز . وشواطىء سيناء

ثروة سياحية ورمالها النقية تصلح لصناعة أغلى انواع الكرستال .

وفى البحر الأحمر والمتوسط والبحيرات ثروة سمكية وكنوز سياحية .

والنيل والوديان والمياه الجوفية ثروة زراعية .

وفى أراضى الصعيد الحديد واليورانيوم .

وفى أسوان والأقصر والجيزة نصف آثار العالم .

والعقل المصرى مبدع خلاق بطبيعته . . والعامل المصرى صبور حمول . . والجندى المصرى هو من خير أجناد العالم . . وهذا قول أصدق البشر محمد عليه الصلاة والسلام .

ومثل بلادنا لا تفلس الا بنظام مفلس ، ولا تتخلف الا بقيادات متخلفة . . لأن الغنى طبيعتها والثراء قدرها . .

ومع ذلك ننظر فى رعب الى ما جرى فى روسيا ونظن انه سوف يجرى علينا اذا نحن اسرعنا الخطى الى الاصلاح ، مع أننا سبقنا روسيا بعشرين عاما فى تلك الاصلاحات . . ولا وجه للمقارنة .

ويعلن وزير التربية والتعليم (فى ذلك الوقت) انه لا مساس بالمجانية الشاملة ، وهو يعلم أنها فساد شامل ، وأنها لا

هى بالمجانية ولا هى بالتعليم . . وانها استنزاف للميزانية بلا مقابل . . وأنها لم تأت بقرار من حكومته . . بل من حكومة تسكن الآن المقابر وما زالت تحكمنا من هناك . .

ويخاف سيادة الوزير إذا أسقط المجانية أن تحدث ثورة . . . مع ان العكس هو الصحيح ، لأن تدفق الألوف من خريجى الجامعات الفاشلة الى سوق البطالة والتسكع والمخدرات والتطرف هو الذى يمكن ان يلد الثورة . .

وإسقاط المجانية عن الطالب الراسب هو أضعف الايمان . . لأنها تعنى العدالة التى لا تسوى بين راسب وناجح ، وبين مجد وفاشل . . وهى مساواة ان استمرت سيكون معناها تكريس الفساد . . ولماذا يحاول اى طالب ان ينجح بعد ذلك مادام يأكل من تكية المجانية الأزلية بلا حساب . . ولا نعرف ماذا سيقول وزير التعليم الجديد .

والخمسون فى المائة (عمال وفلاحين) هو قرار آخر صادر من حكومة المقابر .

وغيرها وغيرها .

ولا أقل من ان نطالب ان يحكمنا أحياء يباشرون صلاحياتهم ولا يتنازلون عنها بمجرد الدخول فى التشكيل الوزارى . . وزراء لا يخافون الا الله وحده . . إن التغيير لابد

قادم بهم أو بدونهم . . لأن الاحتمال الآخر - إذا لم يحدث التغيير - هو التدمير . . تدمير الاقتصاد . . وبالتالى تدمير كل امكانيات الاصلاح .

***

وسياسة الترقيع . . وسياسة القروض . . وسياسة تأجيل المواجهة وإلقاء المشاكل على الخليفة الذى سيأتى إلى الحكم . . كل رئيس وزراء يلقى مشاكله على رئيس الوزراء الذى يأتى بعده ويشترى دماغه . . معناها حكومة اختارت ألا تحكم . . اختارت ان تكون ديوان موظفين . . كل موظف يزيح الى الموظف الآخر عمله ليريح دماغه ويتجنب المسئولية . . والنتيجة هى محلك سر . . او التقدم الى الخلف . . او سياسة التصريحات والمانشتات . . ثم لا عمل جاد يرفع المعاناة عن الناس . .

ان الامتحان صعب . . وفى حاجة الى عقليات خلاقة وسياسات مرنة وحلول غير تقليدية . . ومجلس الوزراء لا يصح ان يكون ديوان موظفين يرفع الأصابع بالموافقة على كل اقتراح . . أو وزراء تشريفة معظم نشاطهم فى المطار!

فى لقاءات متكررة مع زوار أجانب وسياح قال لى اكثر من سائح من جنسيات مختلفة : إن حلم حياته أن يبيت ليلة فى

تابوت خوفو داخل الهرم الأكبر وأنه مستعد أن يدفع كل ما يملك فى سبيل تلك الليلة ولكن للأسف وزارة السياحة لا تسمح . . وكنت استمع اليه فى دهشة وهو يصف تلك الليلة بأنها اشبه برحلة فى سفينة فضاء، رحلة فى فضاء التاريخ . . وعناق للأسرار المبهمة . . وكلام كتير شاعرى غير مفهوم . وفى العالم مجانين بهذا التابوت وبأسراره . . ومجانين بالهرم وألغازه . . ومجانين بأخناتون وأبى الهول . .

ولو كنت وزير سياحة لوجدت الف وسيلة ووسيلة أبيع بها الأحلام لهذا العالم الظمآن اليها . .

وكل المطلوب هو أن نخرج من ثوب البيروقراطية ونفكر بحرية أكثر، وبمرونة أكثر، وبأسلوب غير تقليدى .

إنهم فى أمريكا يحجزون تذاكر من الآن لرحلات فضائية قادمة بعد سنوات الى القمر . . وهم يعرفون كيف يبيعون الأحلام للزبون المناسب .

وبلادنا أغنى بلاد الدنيا فى أحلامها وكنوزها وأساطيرها .

ولكن مطلوب تفكير غير تقليدى . . ومطلوب عقليات خلاقة . . وسياسات مرنة . .

هل نحن أكثر شيوعية من الصين التى ألغت المجانية من جامعاتها وأصبحت كل جامعاتها بمصروفات وكل مستشفياتها

بأجر والصين أفقر بلاد الله . . لماذا نتمسك بالخطأ . . لماذا نخاف الإصلاح . . لماذا نعطى الحق للجامعة الأمريكية بأن تأخذ خمسة آلاف دولار مصاريف من الطالب المصرى ليلتحق بها (أى حوالى عشرين الف جنيه مصرى) ولا نعطى لجامعاتنا ـ التى تتسول ـ عشر معشار هذا الحق؟! وكيف سنرتقى بالتعليم، وكيف نطور المعامل، وكيف ننهض بالمختبرات وميزانية الجامعة تحت مستوى الفقر؟!

والحلول المطروحة هى كالعادة الحلول التقليدية . . طلب التبرعات من أجل الخير . . وتسول القروض والمعونات . . وكالعادة تذهب كل تلك الأموال فى بالوعة بلا قرار اسمها وزارة اللاتربية واللاتعليم ، وتتخرج أجيال هزيلة تحتل المقاهى ونواصى الشوارع . .

ان التعليم هو عصب المستقبل . . ولن نستطيع ان تقتحم المستقبل بدون علم وبجامعات هذا حالها . .

والمستشارون المحترمون الذين ينصحون دائما بأن مجانية التعليم هى أكبر المكاسب الاشتراكية التى لا يجوز المساس بها . . يعلمون تمام العلم انها أحد أكبر خسائر الاشتراكية التى يجب الإطاحة بها . . ولكنه الخوف . . وعبادة الاصنام التى عبدها الآباء . . وعقلية الموظف المصرى الجالس القرفصاء . .

وغريزة تجنب المواجهة والقاء المشاكل لمن يأتى بعدنا . . وإيثار الأمان بعدم تغيير اى شىء وعدم المساس بأى شىء . . وهى عقليات لا تصلح لأن تقود . . لأنها لا تملك الشجاعة على اتخاذ القرار .

ولا مكان لتلك العقليات فى لحظات التحدى التاريخى ، وفى ساعات تغيير المسار ، وفى المنعطفات السياسية التى يلزم فيها اتخاذ مواقف جديدة . . والامتحان صعب ووقت الاجابة محدود والزمن يمضى بسرعة .

وباق من الزمن التاريخى ساعة على دق الجرس وجمع الأوراق .

ولن تنفع الأجوبة التقليدية . .

ولن تجدى سياسة القروض والاستمرار فى التسول . .

ولن تنفع عقليات ديوان الموظفين فى حل مشاكل مصر .

***

حكاية الحمار..!!

الشـــارع العـــربى تحـــول الى أزقـــة ومنعطفات وفقد وحدة الاتجاه.

وأتصـــور أن الشـــعب العـــراقى فى بغداد يعيش بوجه مكسور من الذل وهو لا يجـد اللقـمة ولا الماء ولا الوقـود ولا الكهـرباء ولا الأمن. . يتجـه بكل كـراهيتـه الى صـدام وحزبه وحكومته، ويتـحـول بكل حقـده على أمـريكا وعلى العـرب وعلى كل من تحالف معـهم ليذيقه هذا الهـوان. . والجوع لا يعرف المنطق ولا التحليل السياسى ولا البحث الفلسفى فى الأسباب والمبررات، وإنما هو يتحول الى ثورة وغل وانتقام من كل من أذاقوه تلك الكأس. .

ولا اعـرف مـتى يهـدأ ذلك الانتـقـام ويتـحـول الى تعـقل وحكمة وتفهم لما حدث وكيف حدث ؟!

ومتى يلتمس الأعذار لما فعل الأخ بأخيه. . ومتى يدرك ذلك الشعب المطحون انه مشترك فى المسئولية، وأنه قد أسهم فى الجريمة حينما أسلم قيادة لظلم صدام والى ظلمات حزب البعث وفجوره.

وعلى الجانب الآخر. . حيث الأخوة الأعداء فى حكومة اليمن والأردن والسودان ومنظمة التحرير الفلسطينية لا أرى

حـلا سـوى ان تخـرج تلك الوجـوه التى شـاهـت وسـاندت الدجال ووقفت مع الظالـم . . وفى بلاد الحرية والديمقراطية تسـقط الانتـخـابات أمـثـال تلك الزعـامـات وتخـرجـهـا من الحكم . .

أما فى بلادنا فإن الحكام لا يخرجون الا بالموت او القتل او الانقلاب .

وهى كـقـيـادات فـقـدت صـلاحـيـاتـهـا ومـصـداقـيـتـهـا . . والصراعات العربية ستظل باقية ما بقيت تلك الـوجوه ، وربما اظهـرت المسـالمة وأبطنت اللؤم ، وربما صـافـحت بيد وطعنت بالأخرى . . فـهى اسـمـاء لا خير فيهـا ولا اجـتـمـاع على رأى وهى موجودة .

وإذا استمرت تلك القيادات فلن تشهد فى الجامعة العربية الا تمثيلية مملة ورواية عبثية بلا نهاية . .

وعلى الجانب الأمريكى فإن الشعور بالزعامة ونشوة النصر يتحولان الآن الى احباط ، والستار يرتفع تدريجيا عن حقائق الحرب ومقدار الخراب وعدد القتلى وكـمـيـة الخسائر التى الحقتهـا القوى العسكرية العملاقة بشعوب المنطقة . . ثم ما جرى على الأكـراد بعـد العرب والألوف منهم يسـقطون من الجوع والاعيـاء كل يوم . . ومـا زال صـدام طليـقـا . . ومـا زال يفسد ويتآمرو يقتل . .

ولا شك ان الاحساس بالذنب يؤرق بوش . . فنراه يدفع بالعالم ويحشد المشاعر لنجدة المشردين الأكراد . . ويبعث بالطائرات الأمريكية لتسقط عليهم الطعام والخيام والأدوية . . ولم يعد خافيا ما كسببه الاقتصاد الامريكى والاقتصاد البريطانى و الاقتصاد الفرنسى من هذه المجزرة . . فالدولار يرتفع والبترول ينخفض، ومصانع السلاح تعمل بكل طاقاتها ومشاكل البطالة تتقلص . . والغرب الآن له شبه قاعدة دائمة فى قلب المنطقة النفطية . .

والمأزق الباقى الذى كان يسبب الصداع لبوش هو اسرائيل .

ان اسرائيل ترفض علنا القرار ٢٤٢ للأمم المتحدة برد الأرض فى مقابل السلام ، كما ترفض المؤتمر الدولى، كما ترفض ايقاف بناء المستوطنات ، وهى ماضية فى سياستها لا تعبأ بأحد .

انها ترفض ما كان يرفضه صدام منذ اسابيع . . وتتحدى قرارات الامم المتحدة كما كان يتحداها . . مع فارق كبير . . هو أن رد أمريكا ورد بريطانيا ورد فرنسا ورد المجتمع الغربى على الصلف الاسرائيلى يجىء هذه المرة فاترا . . هادئا . . ورزينا . . ودودا . .

والعالم الآن يشهد ويرى أن الحرب التى لبست ثوب العدالة والمبادىء . . لم تكن سوى حرب مصالح كالعادة . . وحينما جاءت ساعة المبادىء . . سكت مدعو المبادىء وفترت اصواتهم .

هل نقول انها الفضيحة الامريكية .

ولكنها ليست اول فضيحة . . لا لأمريكا ولا للغرب . . وبالأمس كان الاستعمار ينهب ثروات الشرق الاوسط . . ويخطف الافارقة ليبيعهم فى اسواق العبيد . . وكان الظلم فاضحا جهير النبرة . .

وحينما دخل الاستعمار الى المنطقة العربية قسمها الى دول ودويلات وكانتونات ووضع بينها الحدود الوهمية التى اشتعلت الحروب وفجرت الخلافات .

واليوم يستأنف الظلم مشواره ولكن بنبرة هامسة وبأساليب مستترة وطرق ماكرة . . اليوم هو غزو فكرى وغزو اقتصادى . . فإذا تحركت الجيوش فهى تتحرك تحت مظلة محكمة من المبادىء والانسانيات . .

واليوم الاستعمار له وكيل هو اسرائيل . . وله اذرع خفية بقدر عدد العملاء فى كل بلد . .

***

حتى سويسرا البلد الأوروبى المحايد الذى لا يرفع سلاحا على أحد . . نراه يفتح بنوكه للأموال المنهوبة والمليارات المسروقة من الشعوب العربية والافريقية والاسيوية والتى كان يحولها امثال ماركوس ودوفاليه وصدام وبوكاسا وحسين ارشاد وسياد يرى وتشاوتشيسكو ومانجستو وموبوتو لتستقر فى حسابات سرية لا يدرى بها احد . . وعادة لا يطول الانتظار . . فما تلبث تلك الزعامات ان تسقط او تقتل او تغتال او تنقلب عليها شعوبها . . وما تلبث ان تختفى المليارات المسروقة فى السراديب السويسرية فلا يعثر عليها أحد . . وتبتلعها المافيا الجديدة .. مافيا الدولار .

مسكينة شعوب افريقيا . . وشعوب الشرق الأوسط .

ولكن لإخواننا الاوروبيين منطق آخر . . فما يحدث هو فى تصورهم امر طبيعى جدا ومنطقى جدا . . امر طبيعى جدا اذا رأى أحد حمارا سائبا فى الطريق ان يركبه . . أى غرابة فى هذا؟؟!!

صحيح . . أى غرابة فى هذا ؟

انما الغرابة ان تكون حمارا فى عالم ذكى متعلم متقدم . . وفى القرن العشرين الذى صعد فيه الانسان الى الكواكب ومشى على القمر . .

ان تكون حمارا فى هذا الزمان . . وان تكون سائمة ترعى . . وان تسلم ذقنك وقفاك لكل قارع !

هذا هو الأمر الغريب .

ولكن يا سادة . . هذا هو ما يحدث بالضبط .

ولابد لنا ان نعترف بالحقيقة مهما كانت مخجلة ، فنحن فى غاية التخلف . . والذين يستغلوننا غير ملومين . . فأموالنا وثرواتنا تركة سائبة . . . والأعداء فى داخلنا اكثر قسوة علينا من المتربصين بنا فى خارجنا .

ولا أريد أن امضى كثيرا فى سيرة الأعداء والعدوان . . فالقانون والسنة التاريخية تقول : إنه لا يوجد عدو طول الوقت ولا صديق طول الوقت . . وما يحدث فى العادة هو تبادل الأدوار مع مرور الزمن . . فمن كان عدوك يمكنك بالذكاء أن تجعله صديقك . ومن كان صديقا لك يمكن ان ينقلب بغبائك الى عدو لدود لك .

وهذا هو مفتاح الموقف الآن . .

كيف نقود الحوادث لنجعل من الأعداء أصدقاء . ومن الخصوم أعوانا ؟

لن يحدث هذا إلا باستبعاد رؤوس الإجرام أولا . . ثم الجلوس معا لنتحدث بلغة المصالح والتجارة والمنافع . . والسلام دائما منافعه اكبر ، والتعاون خبراته أوفر .

وهذا سوف يحتاج الى سياسة مرنة وعقول متفتحة وقلوب تتقن فن النسيان والتسامح .

وقد يسأل سائل : ولماذا لا نتسامح مع رؤوس الإجرام ولماذا لا نكسبهم هم ايضا . ؟!

والإجابة انهم فقدوا رصيدهم . . وأننا لن نكسب بالتعاون معهم شيئا ذا بال . . فقد انتهوا بالفعل وأصبحوا أصفارا . . وأصبحت تركة الآثام والأكاذيب التى يحملونها اثقالا معوقة لا تسمح لهم بحرية المناورة .

ولكن كيف نستبعدهم بدون انقلابات وبدون دم؟ .

أقول تستبعدهم شعوبهم بالأسلوب الديمقراطى ، وهذا يقودنا الى الحل الحقيقى . . والوحيد . . ان يكون للشعوب رأى مسموع فى حكامها . . وان تكون هناك انتخابات وأن تكون هنا ديمقراطية . . وأن يكون للفرد العربى صوت وكرامة وحقوق .

ورغم أن هذا كلام داخلى جدا . . إلا أنه لا يوجد حل ممكن لمشاكلنا الخارجية ولعلاقتنا العربية بدونه . . بل ان الكلمة العربية لن تتوحد بدونه . . والموقف العربى لن ينشأ بدونه . . ولن يولد مواطن عربى له كرامة بدونه . .

وأن يكون لأمريكا ضغط للاسراع بهذا التطور هو سياسة تحمد لها . . وقوة دفع مشكورة تذكر لها بين ايجابيتها وسلبيتها .

وكما قلت : ان الخصوم ليسوا اعداء فى كل شىء . كما أن الأعوان ليسوا اصدقاء فى كل شىء ، ولم يعد من الممكن بناء المستقبل على اساس العداوة المستمرة بين الشرق والغرب .

وكما قلت فإن يفعله المستغلون ليس دائما جناية قانونية ما دام الآخرون مغفلين . . والقانون لا يحمى المغفلين . . وسوف يُغْفر لهم اننا كنا دائما مغفلين .

وأننا فعلنا بأنفسنا أكثر مما فعلوا بنا ، وقد فعل صدام العراقى بالشعب العراقى ما لم يفعله بختنصر باليهود .

وهذه النظرة الى النفس لابد منها للانطلاق من جديد .

ولاشك أننا فى حاجة الى علوم الغرب وصناعة الغرب وزراعة الغرب وفنون الغرب لنبنى ونعمر ونتقدم ونأخذ مقعدنا فى القطار السريع الذى يلهث نحو الغد .

واسترداد أراضينا من اسرائيل بالاتفاق أفضل من إراقة الدم فى حروب لا يعلم احد مداها . .

فلنمد أيدينا بقلب مفتوح وبعقلية متفتحة نحو جميع الخصوم ، ولننس حكاية الحمار .

فلا لوم ـ كما قلت ـ على من يجد حمارا سائبا فى الطريق إن ركبه .

وهل كان العكس لو حدث (أن يركب الحمار على اكتاف الناس الأذكياء أولى الألباب والعقول) لو فعل ذلك الحمار . . أما كان الأمر يبدو ظلما أفحش . .

نحن إذن أمام سنن الهية تعمل . . هى فى النهاية سنن حكيمة وعادلة إذا نظرنا نظرة واسعة ومحيطة الى اتساع التاريخ وشموله .

وسوف يبدو لنا حينئذ أن ما كان يظهر أنه ظلم فى مرحلة . . قد فعل فعله فى ايقاظ العقول والمشاعر ليثمر عدلا فى مرحلة تالية .

وان العصا الغليظة كانت اداة ربانية ناجحة لتأديب الكسالى أمثالنا وايقاظهم . . ولو ان الله ترك الكسول على كسله بلا عقاب لكان اهمالا لا يجوز فى حقه . . ولكان فى ذلك تشجيع لكل العاملين لأن يكسلوا ولكانت النتيجة توقفا للحركة فى الكون وتوقفا للعمار فى الدنيا .

هو ابتلاء وتربية . .

تربية لسلالات بشرية يصنعها الله على عينه ويربيها مرة بإغداق الثواب، ومرة أخرى بإنزال العذاب لحكمة يريدها فى النهاية . . هى إظهار الحق .

ونرجو الله ان نتعلم ونعتبر من دروس التاريخ . وأن نتأدب الأدب العالى لنتخطى فى مراحل التاريخ القادمة ذلك الموقف الذى رابطنا فيه طويلا (مربط الحمير) الذى رابطت فيه القارة الافريقية مع الفقر والمرض والأمية والبدائية قرونا طويلة .

ولا مدعاة لليأس . . فقد كانت لأوروبا رقدة طويلة فى العصور الوسطى المظلمة . وكان الطاعون والكوليرا والتيفوس والحروب الطائفية تحصدهم . . وكانوا يأخذون علمهم وتقدمهم عنا . . ويترجمون العربية الى لغاتهم ليتعلموا علومنا .

وغرقت أمريكا قرونا فى حروب الشمال والجنوب وفى ظلام العنصرية قرونا أخرى .

واقتتلت الجارتان انجلترا وفرنسا فى حرب المائة عام . . ثم احترق الجميع فى أتون الحربين العالميتين الأولى والثانية .

ثم خرجوا من هذه المخاضة المظلمة الى انوار عصر النهضة .

انه ليل التاريخ ونهاره يتداولان على الأمم والشعوب .

كما يتداولان على نصفى الكرة الارضية . .

ويقول القرآن فى كتابه المحكم :

﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾

ويقول عن اقوام سبأ !

﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾

(تماما كما فعل بالعراق والخليج) .

هذه سنة الله فى تأديب خلقه بالثواب والعقاب فلا داعى لليأس .

المهم ان نعى الدرس ونفهم ونعتبر ونتغير وأمامنا الزمن طويل .

***

وعمر الحياة على الأرض أربعة ألاف مليون سنة . . نصيب الانسان منها بضعة ملايين قليلة (من مليون الى عشرة ملايين سنة فى تقدير البعض) . . فهناك فرصة . . ويوشك نهار الحضارة ان يعود فيدركنا ، وما كان الله ليغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

فلنغير ما بأنفسنا لتعود شمس الله من الشرق . . كما حدث أيام بابل ومنف وبغداد والأندلس . . ايام كان التاريخ يأخذ تعليماته منا ، وكان مربط الحمير فى بلاد الخواجات .

***

اليهود.. الى أين..؟!

لا أعرف لماذا يبكى اليهود أمام حائط المبكى؟!

فلسطين . . أخذوها!

والفلسطينيون . . طردوهم . .

والقنابل الذرية . . امتلكوها

والصواريخ . . صنعوها

وشعوب العالم . . خدعوها .

وأمريكا . . استنزفوها . .

إن وعد بلفور هو الذى زرع هذا السرطان فى الشرق الأوسط وزرع معه المأساة والتشريد والحرب والدمار و الصراع فى المنطقة .

وبريطانيا هى التى ساندت الجريمة . .

وأمريكا التى مولت وأظلت ورعت وربت ووضعت كل امكاناتها فى خدمة اسرائيل . . وفعلت ما هو أكثر . . ضحت بكرامتها وسمعتها كأمة تمثل الحرية والعدالة وحقوق الانسان . . لتكون رهن اشارة ثلاثة ملايين اسرائيلى يدوسون على قيم العدالة والبراءة . ويباشرون القهر والظلم والفساد كل يوم . . فإذا صرخ العالم واحتج قالت امريكا : « فيتو » وقذفت بها فى وجه اجماع هيئة الأمم المتحدة .

وأمــريكا التى يمــوت الملايين من شـبــابهــا بطاعــون المخــدرات . . تعلن ان مــرتزقــة اســرائيل تحــمى بارونات المخدرات فى كولومبيا . . فتسكت .

وتعلم ان اسرائيـل تقوم بتهـريب التكنـولوجيا الامريكية و تسملها الى جنوب افريقيا . . فتكتفى بالعتاب .

والى أى مـدى يمكن أن تضـحى بمبـادئهـا الأخـلاقـيـة وشعاراتها فى سبيل إسرائيل؟

الى اى مـدى يمكن ان تذهب جـريمـة امـريكا فى سبـيل اسرائيل . .

وأى خدمة تقدمها اسرائيل لأمريكا تساوى تلك التضحية .

انها لا تقدم لأمريكا خدمة . بل وصـمة . . فقـد أصبحت الوجه القبيح لأمريكا امام العالم .

وهى لا تصنع لأمريكا قاعدة عسكرية فى الشرق الاوسط بل زلـزالا . . وامـريكا تـعلم ـ كـمــا نعلـم نحن ـ ان الـتـاريخ لا يستمرعلى حال . . لا الضعفاء يستمرون ضعفاء . ولا الأقوياء يستـمرون اقـوياء . . هكذا تعلمت وتـعلمنا من قـراءة ارشيف الماضى .

***

فأين الروم وأين الفرس وأين امبراطورية النمسا؟ بل وأين الامبراطورية البريطانية التى كانت لا تغيب عنها الشمس؟

ان المخدرات تأكل أمريكا من الداخل، واليابان الفتية تأكل اسواقها الاقتصادية من الخارج، والمانيا الناشطة نحو الوحدة سوف تزحف على أوروبا بالمارك الألمانى والصناعة الألمانية . . وسوف يتراجع الدولار الى ما وراء الاطلنطى ويخرج من المحيط الهادى . . وسوف تتغير موازين كثيرة فى المستقبل .

ولن تظل الدول العربية منقسمة على نفسها الى الأبد، وبعد سنوات سوف يصبح العرب أغلبية داخل اسرائيل ذاتها بدون حرب بمجرد ازدياد معدلات التناسل العربى على التناسل الاسرائيلى .

ولن تنفع اسرائيل قنابلها الذرية .

لأن أى قنبلة تلقيها اسرائيل فى فنجان الشرق الأوسط سوف ترتد عليها قبل غيرها بالإشعاع الذرى والغبار الذرى والوبال الذرى . . ولن يقف العالم ساكتا على التلوث الذى ستلقيه اسرائيل فى وجهه، ولن تنفع اسرائيل صواريخها بعيدة المدى .

فكل الدول العربية سوف تملكها وبعدد اكبر .

واجتماع كلمة العرب وحدها ستكون سلاحا امضى من جميع الأسلحة .

وهذه ليست نبوءة . . بل حقيقة . . لأن استمرار عدوان الاقلية الاسرائيلية وسط بحر من الأغلبية العربية استحالة تاريخية .

***

وستظل اسرائيل جسما غريبا مصيره الحتمى ان ينكمش ويحاصر ويتحوصل ويذوى وينتهى امره . . وفى لحظة الأزمة وحين دقت طبول الحرب لم تكن اسرائيل هى العامل الذى كسب لأمريكا الحرب . بل العرب . . ولم تساهم اسرائيل الا بسكوتها . . إن العرب رغم ضعفهم وتفرقهم مازالوا هم القوة الحاسمة فى المنطقة .

وأى تصور غير ذلك أحلام وأوهام .

والزمان أمامنا طويل .

والإسلام من ورائنا . . قد هزم التتار . . وأخرج الصليبيين .

فأى غرابة ان يخرج خلفاءهم .

ولا إله إلا الله . . محمد رسول الله .

***

محراث التاريخ .. مازال يعمل

الزلزال مستمر . .

ومحراث التاريخ مازال يقلب الأرض ويجعل عاليها سافلها .

تمزيق صور لينين وازالة تماثيله . . وإزالة صور كارل ماركس من الجدران . . وهزيمة الشيوعيين فى انتخابات موسكو ولينينجراد وكييف . .

عودة الملكية والأحزاب الى روسيا . . شطب كلمة الاشتراكية من دستور تشيكوسلوفاكيا ومن جمهورية روسيا الاتحادية .

انفراط حبات المسيحية الشيوعية . . وتخلى الأحزاب الشيوعية عن السلطة فى بولنده والمجر ورومانيا وبلغاريا والمانيا الشرقية وتشكوسلوفاكيا ونيكاراجوا واخيرا منغوليا والبانيا واثيوبيا .

جراسيموف يقول : ان جورباتشوف اصابة الفزع لقرار الانفصال الذى اعلنه برلمان لتوانيا . . لقد فكر فيما ستفعله غدا لاتفيا واستونيا وملدافيا ثم جورجيا واوكرانيا وازرباجان وازباكستان . . وطاجيكستان وشعر بالأرض التى يقف عليها تميد من تحته ، وأحس بالزلزال يصل الى مواقع قدميه .

***

إن عملية الازالة التى بدأها قد اشتملت على إزالته هو وعلى إزالة الأرض التى يقف عليها هو أيضا . .

ولم يكن غريبا ان يطلب مزيدا من السلطات ليستطيع التعامل مع المردة الجدد الذين خرجوا من القماقم . . وكان اول ما فعل ان ارسل انذارا الى لتوانيا بالرجوع عن طلب الانفصال . .

عالم قديم ينهدم ، وعالم جديد يولد بدون حرب وبدون ان تطلق رصاصة وبدون ان تسيل قطرة دم .

مذاهب مسلحة حتى الاسنان تختفى كالسراب . . وطواغيت يذوبون كتماثيل الشمع ، وجبابرة يتبخرون كالدخان . . وشعارات يمحوها نور النهار كما يمحو الظلمة .

***

ترى ما رأى المثقفين والرواد الذين كرسوا حياتهم واقلامهم للدعوة وللترويج لهذه الاشتراكيات؟! وما شعورهم الآن وقد سقطت معبوداتهم واصنامهم كما تسقط اوراق الخريف؟!

وأين هم . . ؟!

ولماذا سكتوا فجأة . . ولماذا اصابهم الخرس؟!

ونحن . . إلى متى نسير خلف سراب انتهى؟ والى متى نترك بلادنا غارقة فى المستنقع الاشتراكى الذى ساقها

عبدالناصر اليه ومرغها فى اوحاله، وفى الخمسين فى المائة عمال وفلاحين وخراب القطاع العام ومجانية اللا تعليم واللا تربية، والظلم الواقع على الملاك من المستأجرين، والغبن الواقع على اصحاب الأرض من الفلاحين.

متى نبدأ فى إزالة الأساس الفاسد لنبنى على اساس سليم؟

وهل نستطيع..؟

وهل استطاع جورباتشوف ان يخرج روسيا من أوحال الماركسية ومن المؤامرة اليهودية الكبرى التى خنقت الشعب الروسى وهبطت به الى الحضيض..

لقد أخرجها بالكلام..

وبقى ان تخرج بالفعل.

بقى أن تملأ الرفوف الخالية فى المتاجر السوفيتية بالبضائع والمنتجات والأطعمة بدون اللجوء الى الديون والمعونات والقروض.. ولن يكون هذا امرا سهلا.

ان الاشتراكية لم تدخل بلدا الا دخلت معها القذارة والكسل والسلبية واللامبالاة والتواكل واخلاقيات الحقد والنفاق وتملق الرؤساء.. وكانت نتيجتها دائما هبوط الانتاج والخراب والانهيار الاقتصادى.

وكان هذا يحدث تحت لافتات براقة كاذبة عن الرخاء والوفرة والعدالة . . ومقالات صحفية تمجد الحكام . . وبرامج تليفزيونية تشيد بالانجازات . . ومسيرات شبابية تهتف . . ومواكب تطبل . . وفنون مأجورة تزمر . . بينما الرأى الآخر يمنع . . والألسن التى تقوله تقطع . والاقلام التى تكتبه تقصف !

ولهذا كانت الصورة الظاهرة دائما بهيجة وردية . . والحقيقة الخافية تعسة دموية .

كانت الاشتراكية عملية مرادفة لتدمير البنية الاخلاقية للأمم ، ولم تكن مجرد تغيير للعلاقات الاقتصادية .

والذى حدث مع قرارات الاشتراكية فى مصر فى الستينات انها كانت ايذانا بتدمير الشخصية المصرية وتدمير لهيكل العلاقات الاجتماعية فى مصر ولم تكن مجرد تغيير اقتصادى . والذى حدث فى روسيا على مدى سبعين عاما كان ابشع من ذلك بكثير .

ولهذا لن تخرج روسيا من أوحال الاشتراكية بسهولة لأنه لن يكون مجرد خروج من شكل اقتصادى ، بل خروج من اخلاقية هابطة ودمار معنوى ، وتلف اصاب النفوس والأرواح .

***

وأمراض الأجساد يمكن ان تشفى بسرعة. . أما خراب النفوس ودمار الأرواح فإنه قد يستغرق اجيالا ليشفى.

ولم تسعف جورباتشوف السلطات الكثيرة فى ان يصنع فضيلة. . فالسلطات الواسعة تستطيع ان تدمر بأسهل بكثير من أن تبنى.

وبناء الانسان اصعب بكثير من هدمه.

وما تبقى من فصول فى هذه الحلقات التاريخية التى نراها أمامنا اليوم على مسرح العالم لن تكون أقل إثارة مما مضى منها.

***

الأيدى الخفية..!

ما أكثر ما ضاعت البراءة فى هذا العصر ! !

ضاعت البراءة حتى من وجوه الأطفال . . وأصبحنا نرى النظرات المتآمرة حتى فى وجوه أولادنا .

دول عظمى يحكمها حكامها بنفس عقلية بارونات المخدرات .

السينما التى يفترض ان تقدم لنا الوانا من الواقع ، أصبحت لا تقدم الا العنف والجنس والدم والرعب . . واصبحت بذلك تقدم واقعا مكذوبا . . وبالتالى تصبغ عقول المشاهدين بهذه الصبغة الكاذبة .

المادة فى الروايات هدف . والحب وسيلة . . والثراء هدف ، والدين وسيلة . . والحكم هدف . والمبادىء وسيلة . . والعرى هدف ، والموضات وسيلة . . والانحلال هدف . . والحرية وسيلة .

***

وفى امريكا وأوربا وانجلترا كان الشذوذ الجنسى وتقنين الزنا هدفا ، والأسلوب الديمقراطى والأغلبية البرلمانية وسيلة (بتمريره تلك القوانين فى البرلمان) .

وفى الحروب الأخيرة كان الدمار الشامل هدفا، . والعلم والتكنولوجيا وسيلة.

هل هى بداية انهيار مخطط للقيم.

وهل وراء هذه الظواهر أيد خفية تعمل فى تضامن من وراء الكواليس السياسية، ومن خلف مسرح المجتمع، ومن داخل الصحافة والإعلام والسينما والمسرح، ومن خلال منصات صنع القرار؟!

اننا نقرأ فى كتاب التلمود (وهو الكتاب الذى يضم التراث الدينى والشعبى لليهود):

ان هذا الانحلال مقصود ومراد ومخطط له.. وانه سوف يصنع بأيد عامدة متعمدة تمهيدا لمجىء دولة يهوذا.

ونقرأ أن نفس الأيدى الخفية كانت وراء إشعال الثورة الفرنسية والثورة البلشفية والحربين العالميتين الأولى والثانية، وصعود امثال اتاتورك على مسرح الأحداث فى تركيا، وإمداد امثال صدام حسين بالسلاح والنفخ فيه حتى انفجر فى حرب الخليج.

إن الأخطبوط الصهيونى المنتشر داخل اجهزة صنع القرار وداخل اجهزة الإعلام وداخل مصانع السلاح، وداخل أجهزة

التخابر والتجسس، وداخل البنوك وصناديق المال . . له آلاف الأيدى التى تعمل عامدة متعمدة على إحداث هذا التدهور .

***

ولا أحب ان ابالغ لدرجة تبرئة جميع الأجناس واتهام اليهود وحدهم . . وأعتقد انه رغم ان دور اليهود تاريخيا كان له اكبر نصيب فى إحداث هذا التخريب . . إلا ان الكل مسئول، والكل مدان، وأن الذين نذروا انفسهم لهذه الرسالة الهدامة ليسوا كلهم يهودا . وإنما هناك مساهمون جدد وشياطين جدد من كل الأجناس جندوا أنفسهم لهذه العصبة الإجرامية التى تجر العالم كله الان إلى الخراب .

وهناك كثرة من المتطوعين استهوتهم اللعبة فدخلوا فيها لمجرد حب المغامرة وهواية الشر . . والبعض يعلم تماما ما يفعل . . والبعض موعود بالمناصب . . والبعض موعود بالملايين . . والبعض يعمل لحسابه . . والبعض يفتح مكاتب اجرامية حرة . . والبعض مجرم لا منتم .

ولكن المؤكد أن هناك موجة من الإجرام المخطط والعنف والانحلال تكتسح العالم، واكثر ضحاياها من العالم الثالث الفقير المهزوم .

ونظرة عابرة على أبار الكويت المشتعلة، وطوابير الأكراد الهائمة، ومواطنى الحبشة الذين يموتون من المجاعة، وأطفال

البانيا المشردين، ومواطنى يوغوسلافيا الذين يقفون على حافة الحرب الأهلية، وجمهوريات روسيا التى تتفكك مثل لعبه من البلاستيك، والفلسطينيين الضائعين فى ارض الشتات، وكوبا وانجولا والساندنيستا وفقراء الارجنتين والمكسيك وباقى دول امريكا اللاتينية المتسولة والصين الحبلى بطوفان . .

تلك النظرة العابرة تشى بمنحدر مظلم تتسارع اليه الحوادث .

والعالم الآن الذى أصبح أحادى القطب تقف على رأسه امريكا تلوح بعضلاتها الحديدية . . هذا العملاق المنفرد بالسيطرة . . لا تثير قوته العسكرية اطمئنانا . . لأن القوة العسكرية وحدها لم تعد كافية لضمان استمرار الزعامة .

وانما القوة الاقتصادية مطلوبة بنفس المقدار . . والبنية الاجتماعية الصحية ركن ثالث هام لاستمرار حياة الحضارات .

والاقتصاد الامريكى مهدد من جانب المارك الألمانى الصاعد والين اليابانى المكتسح . . والانفاق الأمريكى اصبح انفاقا كثيرا مترهلا مهددا بعجز الميزانية . . كما ان البنية الاجتماعية الأمريكية تأكلها المخدرات والجريمة والعنف من الداخل .

***

والعملاق الكونى مهدد بالسقوط فجأة كما صعد فجأة ، وماذا بعد انهيار السيطرة الأمريكية . . الا عالم يموج فى بعضه البعض . . ومستقبل مجهول الهوية مثل علامة استفهام كبيرة مريبة .

أين نحن من كل هذا الذى يجرى؟ !

هل نستطيع الخروج من الهيلكية الاشتراكية والجاكتة الجبس التى أدخلنا فيها عبدالناصر منذ الستينات؟ !

هل نستطيع تحرير اقتصادنا السجين فى زنزانة القطاع العام لننطلق ونعمل وننتج ونلحق بالركب الذى يهرول؟ !

هل نستطيع ان ننجح فيما بدأناه من خصخصة القطاع العام الذى أوشك على الإفلاس ، إن لم يكن أفلس بالفعل ؟

هل نستطيع أن نتجاوز مشكلة الرغيف الى المشكلة الأكبر . . مشكلة التعليم . . والاسهام الحضارى؟ ! . .

لا أقل من قوانين جديدة ثورية وحلول غير تقليدية ومتابعة يومية يمكن ان تخرجنا من المأزق . . ليست القروض ، ولا القاء المشكلة على رئيس وزراء قادم ولا تأجيل المواجهة الى الغد ولا التصريحات الواعدة وإنما العمل الجاد والبناء كى تخرج من هذه الوحدة الإقتصادية التى تردينا فيها .

والمشكلة كبيرة . . اكبر من كل الفتاوى . . وهى تحتاج الى اخلاقيات جهاد وقيم عمل . .

وهذا يعيدنا ـ كما قلت ـ الى الأيدى الخفية التى تعمل على تفتيت الهمم وتهديم القيم ونشر الانحلال فى تيار عالمى يسرح طليقا ويخرب فى طريقة كل شىء ويعوق الاصلاح فى كل مكان .

***

وليس كافيا ان يخرج علينا شيخ اصولى فى يده شمروخ ليقول لنا :

الإسلام هو الحل .

فأى إسلام يريد؟ .·. إسلام التكفير والهجرة . أو إسلام حزب الله الايرانى ، أو إسلام عصابة الناجين من النار ، او إسلام صدام؟ . . إنهم كلهم رفعوا راية : الإسلام هو الحل . . فأى من الاسلام هؤلاء يقصد؟

إن العبارة لا توضح المطلوب .

والإسلام نفسه يقول : ﴿ **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾

إذن . . بنفسك فأبدا . . وليس بحمل الشماريخ على غيرك .

وهذا هو المفتاح

وبنفسك فأبدأ . . اخضعها أولا لشريعة الله قبل ان تخضع غيرك . . تخلق بالشجاعة والصدق والسماحة والعفو وحب العمل وحب الاتقان وحب الخير قبل ان تحاول بالعنف والاكراه أن تخلقها فى غيرك .

***

ان الإيمان واخلاقيات الجهاد وقيم العمل بضاعة نفسية اولا . . تنشئتها تحتاج الى ثورة داخلية تعلنها على نفسك . وصراع وجودى باطنى يطهرك ويعلو بك على ماديتك . . وهى تربية ليست بنت يوم وليلة ، وليست حصاد خطب وهتافات . وليست بنت الانقلابات العسكرية وعصابات العنف . .

إنه الجهاد الأكبر .

وليس دون الجهاد الأكبر ما نستطيع به ان نصد هذا الطوفان .

فهل ظهر رجال هذا الجهاد . . أم انهم سيولدون من مخاض العذاب القادم . . أم ان الله يصنعهم الآن على عينه من مخاض هذه السنوات العجاف؟ ! .

إن الإصلاح لن يصنعه ابدا جبابرة . . بل ناس فضلاء بسطاء صادقون .

والله وحده هو مصلح الصالحين . . فكفوا عنا شماريخكم . . وليصلح كل منا من نفسه ولبيك على خطيئته . . وليصارع شيطانه . . وليكبح شهواته . . وليطهر غايته . .

ولا يذهين الغرور بأحد فيظن أنه يمكن ان يصلح العالم بضربة شمروخ فى يوم وليلة . . فتلك مراهقة سياسية .

***

وإذا ظن أحدكم أنه فاعل ذلك . . فليعد القراءة فهو غاليا واحد من العصابة التى تحدثت عنها . . عصابة الأيدى الخفية . . ونفسه الطامعة فى السلطة تخدعه دون ان يدرى . .

***

وهو يريد ان يقفز على أكتاف الكل باستخدام اجنحة الإيمان وشعاراته دون ان يملك اى شىء من جوهر ذلك الإيمان ونقائه .

اننا نسير على الشوك . .

والاعداء من حولنا . . والاعداء فينا . .

وأحيانا تكون نفوسنا أشد عدواة لنا من الكل .

وقد تساعدنا فى مسيرتنا جلسة محاسبة مع نفوسنا كل ليلة قبل أن نغمض عيوننا لننام . . نراجع فيها ما قدمنا من خير . . ونزن بميزان دقيق محايد كل ما فعلناه فى يومنا .

وفى الحديث الشريف :

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا» .

ودنيا اليوم التى تنهار فيها القيم ويتهددها المغيرون من كل اتجاه فى حاجة الى تلك الحراسة الساهرة . .

فما أكثر ما يكون المعتدى عليك هو أنت نفسك . . والأيدى الخفية هى يداك ذاتهما . . تعطلان تقدمك وتعوقان سيرك .

***

عن الغزو الفكرى..

والحرب الخفية وراء الكواليس.

وقـفـت طـويلا امـام حـديث اذاعى لوزير الثقافة فاروق حسنى . . تسأله المذيعة : ما رأيك يا سيادة الوزير فى الغزو الفكرى ومخاطره؟ فيجيب الوزير فى ثقة : لا مخاطر من أى لون من الغزو الفكرى . . ويا مرحبا بالغزو الفكرى فى كل وقت وفى كل مكان . . والتخوف من الغزو الفكرى والغزو الثقافى . . هو تخوف بلا أساس .

***

ولن أجيب مباشرة ، ولكنى سوف أذكر السيد الوزير بالنكبة الاقتصادية التى اصابت مصر ، وبعجز الميزانية التى يشكو منها هو نفسه . ومن الافلاس المادى لمؤسسات المسرح والسينما والكتاب . . وأقول له :

هل كان الاقتصاد الشمولى والقطاع العام والتأميم وبقية أركان الايديولوجية الاشتراكية ـ التى هوت بمصر الى الحضيض ـ إلا غزواً فكريا ماركسيا قامت به عصابة من اليسار وتبناه نظام قمعى . وقامت على نشره وفرضه أجهزة إعلام وأبواق دعاية محترفة وعشرات من الكتاب الذين وهبوا أقلامهم لفلسفة الكرملين وفكره؟! .

***

وأذكره بالدكتور لويس عوض حينما كان يجمعنا حوله فى الأهرام يعلمنا كيف نفكر ماركسيا. وأذكره بشروحه ومقالاته فى الصراع الطبقى وفى المادية الجدلية وفى الاشتراكية العلمية.. وكيف أنها أمل العالم فى التقدم والرخاء والعدالة

وأذكر أنى سألت الدكتور لويس ذات مرة ماذا سيبقى - فى رأيه - من الانسان بعد موته؟

فأجاب فى ثقة عجيبة: لا أكثر مما يبقى من حمار نافق يتعفن فى حفرة.

وسألته رأيه فى الكتب السماوية.. فقال فى يقين: هى أشعار بعضها جيد وبعضها ردىء.

وكان كلامه استمرارا لدعوة سلامة موسى منذ خمسين سنة حينما أجاب عن نفس السؤال قائلا:

جميع الكتب المقدسة سواء عندى، ويستوى معها عشرات المؤلفات الأخرى فى الفلسفة والأدب.

انه تيار واحد من الغزو الفكرى ظل يعمل فى تغريب العقل المصرى وتشكيكه فى مقوماته وأديانه ومقدساته منذ أجيال.

***

ولا أجد تعليقا على هؤلاء المثقفين الأفاضل أفصح من كلمة نبيهم عيسى عليه السلام فى موعظة الجبل:

« إن كان النور الذى فيك ظلاما . . فالظلام كم يكون»؟!!

وفى إنجيل متى ٧ : ١٦ :

« هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا؟ »

والحق انهم ما اجتنوا لنا إلا الشوك ، وما زرعوا فى عقولنا إلا الحسك . . وما كان نورهم الثقافى إلا ظلاما . . وما كانت تقدميتهم إلا تأخرا وهدما أتت به على اقتصادنا من القواعد .

***

وإذا كنت ياسيادة الوزير تعانى من غول البيروقراطية ومن فقر الامكانيات ومن الاقتصاد المكبل بالقيود والشعارات فهو من زرعهم . . ومن أثار غزوهم الفكرى الذى تنكر أثره .

***

وسوف أدع الموضوع لخبير آخر يدلى فيه برآيه . . هو سيرج لاتوش الاستاذ بكلية الحقوق بجامعة ليل بفرنسا والاستاذ بمعهد دراسات التنمية الاقتصادية والاجتماعية بباريس والخبير بشون العالم الثالث .

كما عرضه فى كتابه القيم «تغريب العالم»

(L, OCCIDENTALISATION DU MONDE)

والكتاب لم يفت انتباه زميلنا المفكر والكاتب الاسلامى أحمد عبدالوهاب الذى يعيش معنا نبض العصر . . فطلع علينا

بخواطره العميقة التى ضمنها كتابه «التغريب» معلقا ومحللا «سيرج لاتوش » فى ذكاء .

نحن إذن أمام كتاب هام تلقى عليه الاضواء . ونحن أمام شاهد من أهلها . . من بلاد الغزو الثقافى نفسه .

يقول سيرج لاتوش تحت عنوان : «انتقام الصليبيين» (la revanche des Croises).

«بعد معاهدة فرساى واقتسام غنائم الامبراطورية العثمانية قدم الجنرال جورو الى دمشق مؤكدا استيلاء فرنسا على سوريا ودخل مسجد الامويين حيث يرقد جسد صلاح الدين قاهر الصليبيين العظيم . . ثم رفس قبره برجله صائحا : صلاح الدين . . ها نحن قد عدنا .

***

ويقول سيرج لاتوش بالحرف الواحد : «إن حركة تغريب العالم هى فى المقام الأول حرب صليبية» .

Le mouvement d, occidentalisation du monde est d,abord une croisade.

وقديما جاء الاستعمار ليأخذ التوابل والعبيد والذهب والخامات المعدنية وينزح الموارد ويحتل الأرض . .

وهو الآن يعود بذكاء وفطنة ليحتل العقول بأسلوب آخر . . هو العلم والتكنولوجيا والاقتصاد والفن والفلسفة .

وفى سوق الإعلام الآن نجد شبكة احتكار لأربع وكالات هى : الاسوشيتدبرس واليونيتدبرس (امريكا) ورويتر (بريطانيا) وفرانس برس (فرنسا) .

***

وكل محطات الراديو وقنوات التليفزيون وكل صحف العالم تشترك جميعها فى تلك الوكالات ، كما يتدفق ٦٥٪ من مواد العالم الاخبارية من أمريكا . . وعلى القمة تتربع محطة تليفزيون C. N. N العملاقة لتبتلع السوق الاعلامى كله .

وهذه الدعاية الماكرة . . وهى منحة سخية لا تقاوم . . سوف تخنق الابداعاءات الثقافية عند المشاهدين والمستقبلين ، وسوف تفرض عليهم نوعا من السيادة والتبعية بما تقدم من قدوة فكرية وثقافية للمتلقى .

***

ولن تكون تلك العقول المستقبلية فى أحسن الأحوال إلا أسيرة لون واحد من المعلومات . . تأخذ إلهامها من نبع

محدود يبوح بقدر ما يريد السادة الكبار الذين يخططون لتشكيل تلك العقول من وراء الكواليس .

***

ان فرنسا تقدم خدمة معلومات مجانية بالأقمار الصناعية لمحطات الراديو والتليفزيون الافريقية وسوف تجنى ثمن تلك الخدمات المجانية . . مواقف سياسية وهيمنة وسيادة فكرية .

إن عصر الفاتحين العسكريين وعصر الامبراطوريات الذى تلمع فيه قيادات كبرى ثم تنطفئ وتغيب . . هذا العصر انتهى . . وهذه المرة سوف يسيطر الغرب على الكرة الأرضية الى الأبد . . والاحتلال الثقافى للعقول سيكون احتلالا باقيا الى قيام الساعة .

وإذا كانت أول حرب صليبية قد قام بها القديس يونيفاس ٦٨٠ ـ ٧٥٤ ميلادية لتنصير السكسكون . . ومن بعدها جاءت الجيوش الاوربية الى القدس . . فإن نفس الحرب مازالت مستمرة الى الآن ولكن تحت شعارات حضارية مقبولة وتحت غطاء مشروعات للتنمية وقروض ومنح وبعثات مجانية .

***

ولكن يظل الهدف واحدا . . هو طمس الهوية ومحو الأعراف والتقاليد المحلية ، وتذويب البنية العقلية السلوكية فى

مقابل تكنولوجيا براقة ودمى الكترونية وجنات من الإباحية الجنسية والحريات العبثية .

***

وسوف تكتشف البلاد النامية - بعد فوات الأوان - أنها ما أخذت فى مقابل روحها التى أعطت الا كومة من البضاعة الخردة سوف يعلوها الصدأ .

ثم يقولها سيرج لاتوش بصراحة :

L.occodentolisation du monde a ete tres long.

temps, et n,a pas totalement cesse d,etre, une christianisation.

«ليس وراء هذا التغريب الثقافى إلا نفس محاولات التبشير القديمة» .

وهذا كلام سيرج لاتوش بحروفه وليس كلامنا . . ومسيحية الغرب فى هذا السباق تقف ضد مسيحية الشرق . وكنيسة الغرب تقف ضد كنيسة الشرق . وبين الكاثوليكية والارثوذكسية من الخلافات ما هو معلوم .

والحق اننا قد اكتشفنا بالفعل وبعد فوات الأوان اننا لم نكسب منذ الستيات الا أفكارا خردة هى البضاعة الاشتراكية

الخاسرة التى أعلن أصحابها فى الكرملين أخيراً بوارها وخسارها. وأننا قد هدمنا بيتنا الاقتصادى على رؤوسنا بلا مقابل.

***

وقد سكنت الكتيبة المقاتلة من اقلام اليسار التى كانت تملأ الساحة فى الستينات بالألفاظ الطنانة الرنانة.. فقدت البوصلة والمؤشر والاتجاه.. وصدمتها النهاية المفاجئة التى كانت اشبه بالجلطة والشلل الرباعى فانهارت فى مكانها فاقدة النطق.

***

وقد استهوتنى تلك الألفاظ الطنانة الرنانة فى بداية مراهقتى الأدبية فسرت خلفها مفتونا بضع سنوات، وكتبت فى ذلك الوقت كتابى: الله والانسان الذى اختار الشك والإلحاد طريقا والذى استقبله الرفاق بالاحضان.

وكتب محمود أمين العالم ساعتها: ان هذا الكتاب يبشر برائد فكرى عظيم.. فلما خرجت عن القافلة وانشققت على الصف رجمونى بالحجارة.. وقالوا هو درويش مخبول؟

ان تاريخنا يؤكد بالفعل أن الغزو الفكرى حقيقة. كان هذا الغزو موجودا بقيادة سلامة موسى وشبلى شميل فى الماضى.. ثم تسلمت الراية كتيبة اليسار بقيادة محمود امين العالم وعبدالعظيم انيس.

وبعد أن سقطت راية اليسار تسلمت القيادة تيارات عبثية وسوريالية وعدمية وعلمانية. ثم انفتحت الأبواب والنوافذ. على تيارات سياسية وفكرية صهيونية وأمريكية. ثم بدأ ينهمر علينا طوفان ثقافى من الأقمار الصناعية من كل لون.. واحتلت الشوارع أفلام الجنس والعنف والديسكو.

ولا أقول لسيادة الوزيرنغلق علينا الابواب والنوافذ.

ولا أدعو الى العزلة والانغلاق والتقوقع.

ولا أدعو لرفض الحضارة الغربية ولا بالحجر على رأى او اتجاه.. ولا أعيش فى وسواس الحروب الصليبية كما كان يعيش سيرج لاتوش.

***

إن مصر فى موقع استراتيجى بين ثلاث قارات: اوروبا وآسيا وافريقيا.. وهى نقطة التحام حضارى ولا تملك العزلة.. ولا تملك إلا أن تعيش هذا الالتحام على اشده، ولا تملك إلا أن تنفتح عليه من كل الاقطار. ولكن لابد أن نضع على عقولنا مصفاة ناقدة ترشح وتنقى وتجادل وتناقش كل ما يلقى اليها. لابد أن نعيش فى رباط.. ونضع على ثغورنا الشرطة والعيون.

شرطة عقلية لا شرطة قمعية.

وعيون تأملية لا عيون بوليسية .

وحراسة جدلية لا حراسة عسكرية .

حراسة تناقش الفكر بالفكر . وتقابل النظر بالنظر .

التعددية الفكرية مطلوبة . فالله أراد للدنيا أن تكون مائدة غنية متعددة المآكل والمشارب ليبتلي اختيارنا ومواقفنا . . ولو كانت هناك فكرة واحدة سائدة لما كانت لحرياتنا معنى .

والاسلام كفكر لا يخشى الالتحام ، ولا يهاب المواجهة ، بل إن نقاء جوهره لا يظهر إلا بالالتحام . وطاقاته لا تنقدح إلا بالاحتكاك . وقوته لا تتجلى الا بالتحدى ، ورأيه لا يسود الا بانكسار الآراء الأخرى فى معارك حرة محايدة .

فأنا مع الانفتاح الكامل . . لكن مع الوعى التام فى ذات الوقت بحقيقة وخطر الغزو الفكرى . . ورفاعة الطهطاوى لم يفقد نفسه كما فقد سلامه موسى نفسه فى باريس . . ولم يفقد جذوره فى أول لقاء مع نيتشه ودارون وماركس وفرويد ، كما فقد سلامة موسى جذوره . . ولم يقل كما قال سلامة موسى :

«كلما زادت معرفتى بالشرق . . زادت كراهيتى له وزاد شعورى بأنى غريب عنه . . وكلما زادت معرفتى بأوروبا زاد حبى لها وتعلقى بها و زاد شعورى بأنها منى وأنا منها . أريد من أدبنا ان يصبح أدبا أوروبيا . وأريد من نسائنا . أن يصبحن نساء أوروبيات» .

هذا رجل اصابه الطمس الكامل والمحو الكامل ففقد وجهه وأحشاءه وهويته وذاتيته فلم يبق منه شيء . .

وهناك كثيرون يؤمنون بهذا المذهب السلاموني مثل اخواننا الذين جلبوا لنا بضاعة الاشتراكية البائرة وروجوا لها .

ولكن الأسوياء ينظرون الى كل جديد وافد بمصفاة العقل وإعمال النظر .

ومن أمثال هؤلاء : رفاعة الطهطاوى والشيخ محمد عبده والعقاد والحكيم وطه حسين ونجيب محفوظ . هؤلاء رسل تنوير أخذوا النافع والمفيد من كل جديد، وانتقوا الصالح من كل حضارة ونبذوا الضار والباطل . فأثمرت أفكارهم فى النهاية ثمارا مصرية وفاكهة عربية ولم تفقد جذورهم هويتها . . ولم تفقد صلتها بالتربة العربية ولا بالأرض المصرية العريقة ولم تنطمس بصائرهم ولم تذب شخوصهم .

***

ومن هؤلاء كان الشيخ سلامة حجازى وسيد درويش وعبدالوهاب .

كانوا نجوم تنوير فى الموسيقى وسفراء تجديد فى النغم أخذوا من الغرب وتعلموا منه دون ان يفقدوا مذاقهم وشوفيتهم .

وقد احتفظ كل منهم برأسه فى الطوفان الجديد الوافد لأنه كان يؤمن بأنه غنى فى ذاته وأنه يملك شيئا أصيلا وأن له حضارته وجذوره وعطاءه.

الإيمان بالهوية الذاتية والثراء الحضارى كان حصنهم وحمايتهم.

واليوم.. الانفتاح أصبح حقيقة.. ولم نعد فى حاجة للسفر الى باريس، لأن باريس تقتحم علينا غرف نومنا.. وتدخل علينا لندن من تحت الباب وتنقض علينا امريكا من القمر الصناعى.

العزلة غير ممكنة.. والتقوقع مستحيل. والرفض غير مجد.

وأيضا الاستسلام للأفكار الغازية واخذها بالأحضان وتشربها بلا تمييز.. النافع منها والضار هو انتحار حضارى.

ان الموقف السوى هو اليقظة والوعى والايمان العميق بالذات والايمان بالهوية التاريخية.. فمن تلك الهوية التاريخية خرجت انوار النبوات وأشرقت المعارف الالهية على العالم. فكيف نتحول الى اقزام مفتونين امام الدمى الالكترونية واللعب الفضائية الوافدة علينا من الغرب..

ان لهم علومهم، ولكن لنا نحن ايضا علومنا . . ولهم تراثهم. ولنا تراثنا . . ونحن نستطيع ان نضيف اكثر مما اضافوا .

ومن هذا المنطلق من الندية نستطيع ان نأخذ ونعطى .

ومن هذا المنطلق يثمر تلاقح الثقافات نبتا جديدا .

أما ان ينسحق بعضنا تحت اقدام هذا الغزو الثقافى، ويتعطل جهاز الارسال فى مخه ويتحول الى مجرد آلة استقبال . . فهو الضياع الذى يهدد المنطقة كلها . . وهو الأمر الذى نرفضه جميعا . .

ولا أظن وزير ثقافتنا الذى يرابط على حماية ثغورنا الثقافية إلا رافضا لهذا الأمر أكثر منا ومستشعرا معنا خطره .

ألم أقل فى بداية مقالى انه هو نفسه يعانى من آثار تلك الغزوة الفكرية الشرسة التى اصابت المنطقة بحالة من الايدز السياسى والايدز الاقتصادى جفت فيها ينابيعنا وأجدبت مواردنا . . وأصبحنا نتسول المعونات ونشحذ القروض .

وهل جاءتنا الأوبرا إلا هدية . . ؟

وهل أنقذ معبد أبو سنبل إلا تطوع دولى .

وهل تنتظر آثارنا المكدسة فى المتحف المصرى إلا حملة تبرعات أخرى لتنجو من الزنزانة التى تتكدس فيها .

ومثلها لوحات بالملايين والمليارات تتكدس مهملة فى بدرومات .

ومسارح بلا ميزانيات .

وسينما بلا سند مادى .

إن مشاكلنا تصرخ . . والخطر حقيقى .

والغزوة الاشتراكية الفاشلة قد تركت البدن مشلولا والعقل معطلا .

وانهيار الشيوعية فى أماكن كثيرة من العالم . . فى روسيا . . فى يوغوسلافيا فى البانيا . . فى أوروبا الشرقية . . قد ترك فراغا فى هذه الأماكن . . ووجدنا المعونات تتدفق على هذه الأماكن لتحتل الفراغ .

ويقول سيرج لاتوش : «ان هذه المعونات هى الوجه البرىء الظاهر من القصة» .

ومن وراء المعونات مصالح تسعى لترث الأرض ومن عليها .

ومن وراء المصالح عقائد وغزو فكرى ومنشورات . . وقد شممنا رائحة تلك الصراعات فى أماكن كثيرة . . فى بلغاريا . . فيما حدث من طرد المسلمين الاتراك الذين كانوا يرفضون تغيير أسمائهم الاسلامية .

وفى البانيا الآن . . فيما يحدث من الحرمان من تسهيلات الفيزا الا لمن يغير اسمه باسم غير اسلامى ، وفى أندونيسيا بعد سقوط سوكارنو ، وفى الصومال .

وفى كل بلد يسقط ويتمزق تتسارع القوى المختلفة لترث الأرض البور والعقول المنهكة وتقدم التسهيلات بشروطها ومغرياتها .

ولا يوجد دولار ينفق فى مكان إلا وراءه مصلحة ظاهرة او خفية .

وكل كتاب يحمل فى سطوره هدف صاحبه .

وطبيعى ان يبشر كل كاتب بالعقيدة المثلى التى يحلم بها .

***

ولكن ما هو غير طبيعى بالمرة أن نقرأ فى غفلة . ونشاهد فى غيبوبة عقلية كل مادة ثقافية على أنها بضاعة مزجاة لقتل الوقت والتسلية بلا هدف ولا غاية . . وان نعيش مخدرين طوال الوقت ! !

إنها محاولة من كاتب فرنسى كبير وسياسى محترف لتفتيح العيون على ما يجرى فى غابة الفكر والثقافة . . وشاهد محايد من بلاد الغرب التى تصدر لنا الثقافة يقول كلمته .

***

والتحية واجبة للزميل احمد عبدالوهاب الذى ألقى الضوء بكتابه «التغريب» على مسرح لاتوش وكتابه القيم . . وعلى حقل الألغام الثقافية الذى نمشى فيه .

وفى النهاية لا نملك إلا أن ننشر هذه الآراء أمام عين الوزير ليرى فيها رأيه . . فهو رجلنا الذى يتصدر موقع المسئولية . . وهو صاحب القرار وحارس الديار .

***

المحتويات

رقم الإيداع ٤٢٣٨/ ٩٧
الترقيم الدولى 7-0613 -08 -977

مطابع دار أخبار اليوم
مجمع ٦ أكتوبر

السياسة العالمية حفلة تنكرية يظهر فيها كل سياسى بوجه غير وجهه .

إنها لعبة ذكاء .. الشعارات المعلنة فيها غير النيات المبيتة.. والأوراق التى تكشف على المائدة .. غير المؤامرات التى تحاك تحتها !! ولا أحد يدرى ماذا تحت القبعة .

فى الماضى كانت شعارات الثورة الفرنسية المعلنة هى : الحرية والاخاء والمساواه .. ولكن ما حدث أن الحرية كانت أول رأس قطعها الجيلوتين .

وستالين رفع راية .. كل شيء من أجل الفلاح .. ثم قتل خمسة ملايين فلاح فى أول وجبة !

وأمريكا دخلت حرب الخليج .. وقالت شعاراتها المعلنة... انها حرب تحرير الكويت .. ولكن النار أحرقت بترول الكويت وأكلت أموال العرب .. وظهر من خلف الستار مستفيد وحيد هو إسرائيل ..

وألعاب السيرك السياسى مستمرة ..

د . مصطفى محمود

مطابع دارأخبار اليوم
مجمع ٦ أكتوبر